

صِفَةُ الضَّادِ

وَمُخْرِجُهُ قَدْ يَمَافِي حَدِيثًا

صنعة

ناصر فرج عبدالسلام العريفي

صفة الضاد ومخرجه قديماً وحديثاً

صنعت

ناصر فرج عبدالسلام العريفي

الطبعة الأولى

2006

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ناصر فرج عبدالسلام العريفي
صفة الضاد ومخرجه قديماً وحديثاً

الطبعة الأولى

2006

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تصميم الغلاف وتجهيزه
طارق القبائلي

الطبع
دار أفريقيا
9092656
0926122601

الوكالة الليبية للترقيم الموحد للكتاب
دار الكتاب الوطنية
بنغازي ليبيا
هـ: 9090509 - 9096379 - 9097074
بريد مصور: 9097073
البريد الإلكتروني:
nat_lib_libya@hotmail.com
رقم الإيداع المحلي
2006 7591 بنغازي
ردمك: ISBN 9959-22-930-0

الإهداء

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)

من لا يشكر الناس لا يشكر الله

إلى كل من أعاننا من قريب أو بعيد ونخص منهم

الدكتور محمد خليفة الدناع

الدكتور شعبان عوض العبيدي

الدكتور محمد لياس

الدكتور ونيس القماطى

الأستاذ مراجع الطلحي

الأستاذ محمد خليل الزروق

إلى الوالدين العزيزين رحمهما الله تعالى

وإلى قراءة القرآن الكريم

ونخص الأخوة :- مصطفى بعيو و أبو بكر العلواني وأنس الفيتوري

وعوض بن دردف وأحمد أبو القاسم البوسيفى

فجزاهم الله خير الجزاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(فَإِنَّمَا يَسْرُنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

كان يحيى بن معاذ يقول:

" أفواه الرجال حوانيتها وأسنانها صنائعها فإذا فتح الرجل حانوته تبين العطار
من البيطار والتمار من الزمار . . . الزركشي ، البرهان ج 1522
قال الحسن بن هانئ في مدح خلف الأحمر:-
لأبهم الحاء في القراءة بالحاء ولا يأخذ إسناده عن الصحف .
وقال أحدهم يُدْرَبُ تلميذه على نطق الضاد
" ضربني قاض بقضيب أخضر فضيفته بلحم ضأن ضعيف فغضب وضحك
وقضل بعضه على بعض " وقال ردّها فإنها تزيل عَجْمَتَكَ

وقال ابن الجزري :-

- 1- والضاد باستطالة ومخارج : ميز من الضاء وكلها تجي
- 2- في الظعن ظل الظهر عظم الحفظ : أيقظ وانظر عظم ظهر اللفظ
- 3- ظاهر لظى شواظ كظم ظلما : أغلظ ظلام ظفر انتظر ظم
- 4- أظفر ظنا كيف جاوعظ سوى : عطين ظل النحل زخرف سوا
- 5- وظلت ظلتكم وبروم ظلوا : كالعجر ظلت شعرا نظ
- 6- يظللن محظورا مع المحتظر : وكنت فلما وجميع النظ
- 7- آلابويل هل واولى ناضرة : والغيط لا الرعد وهود قامره
- 8- والحظ لا الحض على الطعام : وفي ظنين الخلاف س
- 9- وإن تلاقيا البيبان لازم : أنقض ظهرك يعض الظالم
- 10- واضطر مع وعظت مع أفقتهم : وصف حاجبهم عليهم

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
1	مقدمة
3	الفصل الأول
3	بيان مخرج الضاد وصفته عند المتقدمين
4	بيان مخرج الضاد وصفته عند اللغويين
17	بيان مخرج الضاد وصفته عند القراء
35	الفصل الثاني
35	بيان مخرج الضاد وصفته عند المحدثين
52	الخلاصة
54	فهرس الآيات
55	ثبت تفصيلي عن المصادر والمراجع

(اللهم اجعل عملي صالحاً ولوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لحمد لله الذي يسر كتابه فقال : ((وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُكْرِمٍ)) ، وعلم القرآن والبيان فقال : ((الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)) ، حفظ هذا الذكر وهذا البيان فقال ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) ، وجعل من سباب حفظه أنه يتلى ((بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) ، ((وَأَنَّهُ لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ))⁽¹⁾ ، كما قال نبي الأمين صلى الله عليه وسلم ، فالحمد لله كثيرا والصلاة والسلام على خير خلق الله بيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد : فإن الضاد العربية الفصيحة التي وصفت في كتب الأوائل من أمثال سيويه ومكي بن أبي طالب كلمة من كلمات الله التي تكفل الله بتيسيرها وتعليمها حفظها ، وترى بعضهم يقول إن هذه الضاد غير منطوقة الآن وآخر يقول قد غيرت إلى دال مفحمة أو طاء أو ... إلخ ، بل تجرأ بعضهم وقال إن ما وصف في كتب التراث هو لغة مولدة وليس بلغة عربية فصيحة ، وهذه أقاويل قد راجت وتفشت بين أغلب الدارسين للأصوات العربية المحدثين ، الذين لم يربطوا بين علم الأصوات وقراءة القرآن الكريم خاصة ، فما قاله هؤلاء الدارسون من تغير حروف اللغة أو زوال بعضها هو ادعاء بأن القرآن الكريم قد دخله تغير وتطور في ألفاظه ، واختلاف في كيفية نطقه بين المتقدمين والمتأخرين ، وهذا أمر لو سلمنا له لأدى إلى الطعن في القرآن الكريم ونز في تواتره وزعزعة الثقة بهذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وكنت قد كتبت فيما مضى ورقة بحثية في هذا الموضوع ، إلا أنها انحصرت في بيان المفاسد التي يسببها هذا القول ، وذكرت فيها اختلاف الفقهاء فيمن أخرج الضاد من غير

(1) هو جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي

مخرجها في سورة الفاتحة ، فبعضهم قال بطلان صلاته ، وبعضهم قال بكراتها
وذلك من أهمل أو قصر خاصة ، وهو قادر على التعلم والرياضة اللسانية إلى غير
ذلك من الأمور التي ذكرتها في تلك الورقة ، إلا أن تلك الورقة لم تقدم الردود
الصوتية والأدلة من الناحية اللسانية فبحثُ هذا الموضوع لأثبت أن الضاد مازالت
موجودة وأن القراء الحذاق المْتَقِنِينَ ما زالوا ينطقون بها وجمعت في ذلك أدلة
وحاولت الرد على أهم حجج المخالفين ، ولكن واجهتني مصاعب عديدة منها ندرة
الكتب المتخصصة في ربط علم الأصوات الحديثة بالقراءة القرآنية ، كذلك لم أعتد
على كتاب مطبوع أفرد للحديث عن موضوع الضاد ، بل إن كل ما عثرت عليه هو
تُقول عن مخطوطات في كتب حديثة جاء فيها ذكر الضاد عرضاً ، كما لم يتوفر لي
جهاز واحد مما وجدت المحدثين قد قاسوا بها هذه الأصوات وذلك لأتحقق من هذه
النتائج التي وصلوا إليها وإلى غير ذلك من المصاعب التي تواجهنا كل حين .

وقد جعلت البحث من مقدمة وفصلين وخاتمة ، أما المقدمة فهي التي بين
أيدنا ، وأما الفصل الأول فيشمل بيان مخرج الضاد وصفتها عند المتقدمين ، وأما
الفصل الثاني فذكرت فيه مخرج الضاد وصفتها عند المحدثين مع مناقشة كل من
البيانيين وذكر ما تميزت به كل جماعة منهم ، أما الخاتمة فهي خلاصة البحث وزبدة
النقاش وفي آخر هذه المقدمة أسأل الله العلي العلام أن يوفقنا لصالح القول والعمل .
ما كان من خطأ في هذا البحث فمني وما كان من صواب فمن الله .

" وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد خير خلق
الله أجمعين وعلى آله وصحبه وأتباعه المهتمدين .

1998/7/21م

بنغازي الأمانة المحفوظة بإذن الله تعالى .

الفصل الأول

بيان مخرج الضاد وصفته عند المتقدمين

أقدم بين يدي هذا البيان أبياتاً للشاطبي 590 هـ ، يذكر فيها كلاماً يتعلق بمخارج الحروف وصفاتها . يقول في حزره :

وَهَاكَ مَوَازِينَ الْحُرُوفِ وَمَا حَكِي جَهَابُذَةُ الثَّقَادِ فِيهَا مُحَصَّلاً
وَلَا رِييَّةً فِي عَيْنِهِنَّ وَلَا رِيَا وَعِنْدَ صَلِيلِ الرَّيْفِ يَصْدُقُ الْأَبْثَالُ
وَلَا بَدًّا فِي تَعْيِينِهِنَّ مِنَ الْأَلْي عُنُوا بِالْمَعَانِي عَامِلِينَ وَقَوْلًا⁽¹⁾

أقول إن القدماء وصفوا مخرج الضاد وصفها وصفاً واضحاً جلياً يعين علي النطق الفصيح المتواتر الذي ضُبطَ عندهم بالمشافهة وأوصوا من يريد الإتقان والحدق أن يلم بالوصف والأداء قال مكّي ت 437 هـ في الرعاية (فَتَقَلُّ الْقُرْآنِ فَطْنَةُ وَدِرَايَةُ أَحْسَنَ مِنْهُ سَمَاعاً وَرَوَايَةً : قَالَ فَالرَوَايَةُ لَهَا نَقْلُهَا وَالدِّرَايَةُ لَهَا ضَبْطُهَا وَعَمَلُهَا . قَالَ : فَإِذَا اجْتَمَعَ لِلْمَقْرَأِ النُّقْلُ وَالْفِطْنَةُ وَالدِّرَايَةُ وَجِبَتْ لَهُ الْإِمَامَةُ وَصَحَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ ، إِنْ كَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ دِيَانَةٌ⁽²⁾) وَلَا يُشَكُّ أَنَّ الضَّادَ مِمَّا يَنْقَلُ بِهَذِهِ الضُّوَابِطِ لِأَنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَجِزءٌ مِنْهُ . وَنَجِدُ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ قَرَّرَهُ سَيِّبُوهُ ت 180 هـ — عِنْدَمَا وَصَفَ الْمَخَارِجَ وَالصِّفَاتِ الْخَاصَّةَ بِالْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنَّ الضُّابِطَ لِهَذِهِ الْحُرُوفِ هُوَ الْمَشَافَهَةُ وَالتَّلْقِي⁽³⁾ ، وَ لَعَلَّ هَذَا يَشْبَهُ مَا يُسَمَّى بِالنَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي الْعُلُومِ التَّجْرِبِيَّةِ الَّتِي لَا تُغْنِي النَّاحِيَةُ النَّظَرِيَّةُ عَنْهَا .

(1) الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع - تأليف عبد الفتاح القاضي - ص 387 - مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد
لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية .

(2) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة لمكي بن أبي طالب القسي - ص 69 ، 70 تحقيق د. احمد حسن فرحات مطبعة مكّي
لتوزيع الكتب العربية .

(3) الكتاب لسبيويه - ج 4-ص 432 - بتحقيق عبد السلام هارون - مطبعة الهيئة المصرية للكتاب سنة 1975 م .

بيان مخرج الضاد وسمته عند اللغويين

أولاً عند الخليل ت 175 هـ

أول وصف لمخرج الضاد جاء عند الخليل في معجمه العين إذ يقول ((الجيم والشين والضاد في حيز واحد))⁽¹⁾ ثم يتكلم عن هذا الحيز فيقول ((والجيم والشين والضاد شَجْرِيَّةٌ لأن مبدأها من شَجَرٍ أي مَفْرَجِ الفم))⁽²⁾ هذه ماهية المخرج عند الخليل ولا نجد ذكراً لصفة الضاد سوي أنها شَجْرِيَّةٌ وهذه صفة تتعلق بالمخرج ولا أثر لها في السمع هذا ما جاء منقولاً عن الخليل في أمر الضاد وواضح أنها إشارات لطيفة خفيفة وكأنه يتكلم للمتخصصين ، ويكتفي بالمشاهدة .

(1) العين للخليل بن أحمد الفراهيدي - الجزء الأول - بتحقيق د. مهدي مخرومي ، د. إبراهيم السامرائي - ص 58 - منشورات دار مكتبة الهلال .

(2) المصدر السابق والصفحة نفسها .

يقول سيبويه في وصف مخرج الضاد مكماً وشارحاً كلام شيخه ((ومن
يَبِينِ أَوَّلَ حَافَةِ اللِّسَانِ وَمَا يَلِيهَا مِنَ الْأَضْرَاسِ مَخْرَجَ الضَّادِ ..⁽¹⁾)) فالخليل ذكر بداية
مُخْرَجِ الضَّادِ بِأَنَّهَا مِنْ مَفْرَجِ الْفَمِ وَسِيبُوهِ كَمَلَّ بِوصفِ مَا يَخْتَصُّ بِالضَّادِ مِنْ أَجْزَاءِ
اللِّسَانِ وَهُوَ أَوَّلُ الْحَافَةِ وَمَا يَجَاوِرُهَا مِنَ الْأَضْرَاسِ وَحَذَّرَ مِنَ الضَّادِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي قَالَ
عَنْهَا فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُسْتَهْجَةِ)) وَتَكُونُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا
بِحُرُوفٍ غَيْرِ مُسْتَحْسَنَةٍ وَلَا كَثِيرَةٍ فِي لُغَةٍ مِنْ تُرْضَى عَرَبِيَّتُهُ ، وَلَا تَسْتَحْسِنُ فِي قِسْرَاءِ
الْقُرْآنِ وَلَا فِي الشَّعْرِ وَهِيَ .. الضَّادِ الضَّعِيفَةِ ، وَالضَّادِ الَّتِي كَالسَّيْنِ ..⁽²⁾)) ثُمَّ يُرَكِّزُ
سِيبُوهِ عَلَى أَمْرِ الْمَشَافَهَةِ فَمَهْمَا وُصِفَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهَا إِلَّا بِالْمَشَافَهَةِ
يَقُولُ فِي ذَلِكَ ((وَهَذِهِ الْحُرُوفُ ... ، لَا تُبَيِّنُ إِلَّا بِالْمَشَافَهَةِ))⁽³⁾

وقد ذكر سيبويه فروقاً بين الضاد الضعيفة والضاد الفصيحة فالضاد الضعيفة
من حافة اللسان بينما القوية من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ،
الضاد الضعيفة جُمعَ فيها تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه بينما القوية إذا
وضعت لسانك في موضعها انطبق لسانك من موضعها إلى ما حاذى الحنك الأعلى
من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان
والحنك إلى موضع الحرف ، الضاد الضعيفة مخالطة لحروف اللسان أما الفصيحة فلم
يذكر لها ذلك والنص القادم يصف الضعيفة وقد مر وصف الفصيحة .

(1) الكتاب لسيبويه ج 4 ص 433 .

(2) المصدر السابق ص 432 .

(3) المصدر السابق ص 432 .

يقولُ سيبويه ((إلا أن الضاد الضعيفة تُتكلَّفُ من الجانب الايمن ، وإن شئت
تكلَّفَتْها من الجانب الأيسر وهو أخف ، لأنها من حافة اللسان مطبقة ، لأنك جمعت
في الضاد تكلَّفُ الإطباق مع إزالته عن موضعه . وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من
اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخف لأنها من حافة اللسان ، وأنها تخالط
مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان ..))⁽¹⁾ واعلم أن
المخالطة أو الاستطالة التي ذكرها سيبويه للضاد الضعيفة هي التي تُؤلِّدُ الضعف لأنها
عند ذلك الفعل تكون خالطت غيرها وخالطها غيرها فتكون شبيهة بالبدال أو الطاء
وما إلى ذلك وهذه الاستطالة تخالف مفهوم الاستطالة عند المتأخرين عنه فهي
عندهم تخالط اللام الذي هو من حافة اللسان إلا أنه من موضع مختلف فاستطالة
الضاد الضعيفة تخرجها من مخرجها حتى تخالط حروف اللسان الأخرى أمَّا الاستطالة
الصحيحة فلا تتعدى مخرج اللام الذي هو من حافة اللسان أيضاً وهذا ما يقره سيبويه
عند الاستطالة ونلاحظ أن سيبويه وضَّح الضاد بضدها وهي الضاد الضعيفة وسيبويه
يُعدُّ كلامه هنا مصدراً لاغنى عنه .

وبعد المخرج تكلم سيبويه عن صفات الضاد فوصفها بأنها مجهورة وذلك
عندما سرد الحروف المجهورة فقال ((فأما المجهورة فالهمزة ... والياء ،
والضاد .. فذلك تسعة عشر حرفاً ..))⁽²⁻³⁾ وعرَّفَ سيبويه الجهر فقال ((فالجهورة :
حرف أشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضي الاعتماد
[عليه] ويجرى الصوت فهذه حال المجهورة في الحلق والفم ..))⁽³⁾ ونلاحظ وصفاً
عن فهم وعمق وإدراك لماهية الصفة ولا بد من معرفة أن الموضع هنا في هذا
النص هو المخرج كما أن سيبويه يفرق بين النفس وبين الصوت فالاعتماد المشبع

(1) الكتاب لسيبويه ج 4 ص 432.

(2-3) المصدر السابق ص 434.

أولاً الذي يكون في الضاد في حافتي اللسان ثم حبس النفس ثانياً إلى أن ينتهي الاعتماد ثم يجري الصوت ونلاحظ أنه قَبِدَ منع النفس إلى حين ينتهي الاعتماد في الموضع وجرى الصوت ولم يَمْنَعُه مطلقاً.

ثم ذكر سيبويه قاعدة للتفريق بين المهموس والمجهور فقال « وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد [عليه] في موضعه ، حتى جري النفس معه ، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مَعَ جَرِي النَّفْسِ ولو أردت ذلك في المجهورة لم تَقْدِرْ عَلَيْهِ. فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد أو بما فيها منها وإن شئت أخفيت ..⁽¹⁾» يعني أن الحروف المجهورة لا يجري معها النفس مثل جري المهموسة وَيَتَبَيَّنُ مما سبق أن الجهر ضدهُ الهمسُ.

ثم جاء بصفة أخرى وهي الرخاوة التي جعلها مخالفة للشدة وعرف سيبويه الرخاوة بضدِّها فقال في تعريف الشديدة « وهو الذي يمنع الصوت أن يجرى فيه وهو الهمزة والقاف .. وذلك أنك لو قلت أَلَحَجْ ثم مددت صوتك لم يجر ذلك⁽²⁾» ثم قال بعد هذا «ومنها الرَّخَوَةُ وهي الهاء والحاء والضاد .. ، وذلك إذا قلت الطس ، وأنقَضُ ، وأشبه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت⁽³⁾» وتلاحظ أن جَرِيَّ الصوت وعدمه هو الفيصل في الرخاوة وعدمها وجاء بضابط هو مدُّ الصوت بالحرف في الرخاوة وقال إن شئت أي أنها لا تلزم في درج الكلام ولا تظهر عند النطق به إلا إذا طلبت هذه الرخاوة وفي تمثيله بالسين والضاد دلالة في نظري على أن الرخاوة من أوضح ما تكون فيهما فلا يُمَثَّلُ إلا بما هو واضح في جنسه وظاهر فيه كما هي عادة الأمثال.

(1) الكتاب لسيبويه ج 4 ص 434 .

(2) المصدر السابق ص 434 .

ثم عقب الرخاوة ذكر الإطباق الذي يناظر الانفتاح فقال في ذلك «فأما المطبقة فالصاد ، والضاد، والطاء، والظاء»⁽¹⁾ ويبدو أننا سنأخذ صفات الضاد من سيبويه بمفهوم المخالفة فإن الإطباق يتضح عندما يقول عن الانفتاح «والمفتحة: كل ما سوى ذلك من الحروف ، لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى»⁽²⁾ وفي هذا بيان للإطباق بأنه ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى . ثم يأتي ليزيد الأمر دقة فيقول « وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف وأما الدال والزاي ونحوهما فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان وقد بين ذلك بحصر الصوت ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً والصاد سيناً ، والظاء ذالاً ، ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها»⁽³⁾ وفي صفة الإطباق بيان أن الحرف له موضعان فالضاد حافته تلى الأضراس ويقرب الجزء الأخير من اللسان من الحنك الأعلى وإضافة لما سبق يذكر سيبويه أن الإطباق هو الذي لولا وجوده لخرجت الضاد من الكلام لأنه لا يشاركها في موضعها شيء من غيرها وهذا الوصف للإطباق يطابق ما عند المحققين⁽⁴⁾ بل هو أكثر وضوحاً وهو ملاحظ في قراءة القراء الحذائق المشافهين في زماننا هو وما قبله من صفات وما بعد كما سيأتي . ثم ذكر سيبويه صفة أخرى للضاد وهي الاستعلاء قال سيبويه «فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء

(1) 2- الكتاب لسيبويه ص 436.

(2) المصدر السابق والصفحة نفسها

(4) انظر إبراهيم أنيس - الأصوات اللغوية - ص 47 ، محمود السمران - علم اللغة - ص 168 غانم قنوري الحمد - الدراسات

الصوتية - ص 288

... وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى» (1) وفي هذه الكلمة تفسير لمعنى الاستعلاء (2) وهو صعودها إلى الحنك الأعلى وقد ردد بعده العلماء هذا المعنى كما يردت 285 هـ الذي قال ((وإنما قيل مستعلية لأنها حروف استعلت إلى الحنك الأعلى ، وهي الحروف التي تمنع الإمالة)) (3) وواضح الاتفاق في تفسير الاستعلاء وسمّاه سيبويه أحياناً بالتصعد مكان كلمة الاستعلاء (4).

ووصف سيبويه الضاد بالاستطالة فقال ((الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء)) (5) فسيبويه يجعل الرخاوة سبباً للاستطالة ويجعل الاستطالة هي الاتصال بمخرج اللام وليس المخالطة بحروف اللسان كما في الضاد الضعيفة ولا يجعل الاستطالة من خصوصيات الضاد بل هي للشين أيضاً ولعلّ سيبويه يجعل التفشي والاستطالة أمراً واحداً فهو لم يصف الضاد بالتفشي (6) وكأنه اكتفى بالاستطالة عن ذكر التفشي وصفة الاستطالة تميزها سيبويه عن ابن جني ت 392 هـ الذي سيأتي ذكره بعده.

ومهما يكن فالاشتراك بين هذه الحروف الذي عبر عنه سيبويه بالاتصال هو في الحافة إلا أن المخرج الذي لا يشارك الضاد فيه حرف آخر هو الضغط على جانبي حافة اللسان وما يليها من الأضراس .

(1) سيبويه الكتاب ص 128-129 ج 4

(2) غانم قدوري يظن أن كلام سيبويه فسرّه كلام المبرد والصواب أن كلام المبرد تكرر لكلام سيبويه.

(3) المُتَعَلِّقُ ج 1 ص 225- تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.

(4) الكتاب لسيبويه ج 4 ص 457، 466.

(5) المصدر السابق ص 457-466.

(6) المبرد يصفها بالتفشي أنظر المقضب ، ص 211 ، ص 214 ، ج 1.

ثالثاً : عند ابن جنّي ت 392 هـ

أكّد ابن جنّي المخرج الذي ذكره سيبويه فقال ((ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر))⁽¹⁾.

وهذا النص تأكيد لوصف سيبويه وفيه بيان لجهتين اعتاد العرب إخراج الضاد معها كما ورد عن سيّدنا عمّار بن الخطاب رضي الله عنه وقد أومأ سيبويه للجهة اليمنى واليسرى عند حديثه عن الضاد الضعيفة إلا أن ابن جنّي أثبت في هذا النص كون الضاد تخرج من الجهتين أيضاً.

وأكد ابن جنّي جهر الضاد ورخاوتها وكذلك الإطباق والاستعلاء اللذين فيها بنصوص⁽²⁾ لا تخرج عن كلام سيبويه قيد أمثلة ثم ذكر صفة لم يذكرها سيبويه وهي كونها مشربة يقول ابن جنّي ((ومن المشربة حروف يخرج معها عند الوقف عليها نحو النفخ إلا أنها لم تُضغَط ضغط الأول، وهي الزاي، والظاء، والذال، والضاد، وبعض العرب أشد تصويماً))⁽³⁾ وهذا النفخ يخالف النَّفَس الذي يخرج مع المهموسة يقول ابن جنّي في ذلك ((فأما حروف الهمس فإن الصوت الذي يخرج معها نَفَس، وليس من صوت الصدر، وإنما يخرج منسلاً وليس كنفخ الزاي، والظاء، والذال، والراء، شبيهة بالضاد))⁽⁴⁾ ولا بد أن تعلم أن هذا الصوت يكون في الوقف فقط أما في الدرّج فلا يسمع ذلك الصوت يقول أبو الفتح ابن جنّي ((وجميع هذه الحروف التي تُسمع معها في الوقف صوتاً، متى أدرجتها ووصلتها زال ذلك الصوت لأن أخذك في صوت آخر، وحرف سوى

(1) كتاب سر صناعة الإعراب لابن جنّي - بتحقيق السقا، إبراهيم مصطفى، محمد الزخارف، عبد الله أمين، مطبعة الحلبي و أولاده بمصر - ط 1، 1954م ج 1، ص 52.

(2) المصدر السابق، ص 68، 69، 70، 71.

(3) المصدر السابق، ص 73.

(4) المصدر السابق والصفحة نفسها.

الأول ، يشغلك عن إبتاع الحرف الأول صوتاً، وذلك نحو قولك خذها، وحُزّه،
واخْفِضْهُ، واحْقَظْهُ، إلّا أنك مع ذلك لا تحصر الصوت عندها، حَصَرَكَ إِيَّاهُ مع
الهمزة والعين والغين واللام والنون والميم»⁽¹⁾.

ثم ذكر أن الضاد مصمتة لا يعتمد في نطقها على صدر اللسان وطرفه
والمصمتة هذه ضد المذلفة يقول في ذلك «ومنها حروف الذّلاقة، وهي سِتَّةُ:
اللام والراء والنون، والفاء، والياء، والميم لأنه يعتمد عليها بذلّق اللسان وهو
صدره وطرفه ومنها الحروف المصمتة وهي باقي الحروف»⁽²⁾ وهذه صفة لأثر لها في
الصوت وإنما هي من صفات المخرج وهذا الإصمات لم يتضح عند الخليل⁽³⁾ بل لم
يرد في مُقدِّمة العين وسكت سيبويه عنه أيضاً وأما ابن جني فلخص المسألة
فالحروف المذلفة عنده أخف من المصمتة وأكثر امتزاجاً بغيرها أما المصمتة فهي
صعبة على اللسان كما هو الحال في الضاد فهو أصعب الحروف مخرجاً وصفة
وخصوصاً إذا جاورت غيرها من الحروف القريبة القوية كالطاء مثلاً في نحو «فَمَنْ
اضْطُرَّ»⁽⁴⁾.

وقد ذكر ابن جني أن الضاد خاصّة بنا فقال «واعلم أن الضاد للعرب
خاصة، ولا توجد في كلام العجم إلّا في القليل، فأما قول المتنبي:-
وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّادَ دَ وَعَوَّذُ الْجَانِي وَعَوْتُ الطَّرِيدِ
فذهب فيه إلى أنه للعرب خاصة، ولا يعترض مثله على أصحابنا، وقد ذكرت
هذا في كتابي في تفسير شعره»⁽⁵⁾.

وما ذهب إليه ابن جني والمتنبي في شعره تثبتته الدراسات المقارنة في اللغة السامية واللغة العربية .

(1) سر صناعة الإعراب - لابن جني - ص73.

(2) المصدر السابق ص74

(3) كتاب العين يحدد الأمور الصوتية المسموعة وهذه الصفة نجدها عند الصرفيين أكثر وحتى ابن جني ناقشها صرفياً أكثر منها
صوتياً.

(4) سورة البقرة ، آية 173 .

(5) سر صناعة الإعراب - ص 221

رابعاً : عند ابن سينا ت 392 هـ:-

تحدث ابن سينا في رسالته عن أسباب حدوث الحروف فقسّم حدوثها قسمين بعضها مفردة ((تَحْدُثُ عَنْ حِسَاتٍ تَامَّةٍ لِلصَّوْتِ أَوْ الْهَوَاءِ الْفَاعِلِ لِلصَّوْتِ يَتَّبِعُهَا إِطْلَاقٌ دَفْعَةً وَبَعْضُهَا مَرَكِبَةٌ وَحُدُوثُهَا عَنْ حِسَاتٍ غَيْرِ تَامَةٍ وَلَكِنْ تَتَّبِعُ إِطْلَاقَاتٍ))⁽¹⁾ ثم يقول ابن سينا والضاد من الحروف المفردة من وجه وهذا نصه ((والحروف المفردة هي: الباء، والتاء، والجيم، والذال، والضاد من وجه⁽²⁾...))⁽³⁾

وهنا وصف فيزيائي راقٍ للضاد يحدّد كونها مفردة من وجه ويقول عن وجه الاشتراك مع المفردة ((وهذه المفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس و زمان الإطلاق وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدّث فيه صوت حادثٌ عن الهواء وهو مسكّن بالحبس و زمان الإطلاق ليس يُسمع فيه شيء من هذه الحروف لأنها لا تمتد البتّة، إنما هي مع إزالة الحبس فقط))⁽⁴⁾ وفي هذا تحديد لوجه الاشتراك في كونها مفردة ثم بعد ذلك يذكر ما يميّز كل مفرد في كلّ طبقة من الطبقتين المفردة والمركبة فيقول في جلاء ((وبعد اشتراك كل واحدة من الطبقتين في العلة العامية فقد تختلف بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق، فإنها ربما كانت ألين، وربما كانت أصلب، وربما كانت أيسر، وربما كانت أرطب وربما كان الحبس في نفس رطوبة تنفّج ثم تنفّق إماماً مع انفصال وامتداد وإما في مكانها وقد يكون الحابسُ أصغر وأعظم والمحبوسُ أكثر وأقل، والمخرج أضيّق وأوسع ومستدير الشكل

(1) رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا - بتحقيق محمد حسان الطيان، يحي مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ط1، 1983م ، ص60.

(2) في كتابه "الشفاء" جوامع علم الموسيقى، ص86، لم يذكر فيه الضاد ضمن الحروف المفردة، نقلاً عن محققي رسالة ابن سينا، الرواية الثانية ص 106.

(3) رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا ص 60-61.

(4) المصدر السابق ص 62، 63.

ومستعرض الشكل مع دقةٍ والحبسُ أشدُّ وألين، والضغط بعد الإطلاق أحفزٌ وأسلسٌ⁽¹⁾ بعد هذا التأسيس والتحديد لأوجه الاشتراك والاختلاف بين المخارج يذكر هذا المخرج الذي هو ضالنتنا فيقول محمداً حدوثه ((وأما الضادُ فإنها تحدثُ عن حبسٍ تامٍ عندما يتقوم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس، إذا أُطلق أُقيم في مسلك الهواء رطوبةٍ واحدةٍ أو رطوباتٌ تتفكَّعُ من الهواء الفاعل للصوت وتمتد عليها، فتحبسه حبساً ثانياً، ثم تنشق وتتفكَّعُ، فيحدثُ شكُّلُ الضاد⁽²⁾) وإنا نرى في هذا الوصف ربطاً بين الضاد والجيم كما هو عند الخليل ومحكم أن الرجل ضليعٌ في الفيزياء والتشريح فقد غلبت عليه أدوات هذه الصناعة فأتى بوجهٍ جديدٍ للوصف بل قال إن نطق الحروف قد يسمع من أصوات غير نطقية يقول في ذلك ((والضاد عن انفلاق فقايع كبار من الرطوبات اللزجة، وعن انشقاق الأوراق، عن لطمٍ ينفذُ في وسطها الهواء من غير خرقٍ الأطراف، إلا أن ذلك للقوة ربما بل كثيراً ما يشبه الطاء⁽³⁾) ذكرت سابقاً أن ابن سينا ربط بين الجيم والضاد في ترتيب المخرج وهنا في النص الأخير ذكر أن شبه الضاد بما ذكره إذا قوى كان طاءً وهذا هو عين ما عند الحديثين من قولهم الضاد تشبه الطاء فابن سينا يصف الضاد الفصيحة بدقة غير مسبوقة في مجاله.

ثم يميز الضاد من الجيم ويُفرِّقها عنها بشيئين يقول في ذلك ((والحبس فيه تامٌ كالجيم، لكن تخالفها بشيئين: أحدهما: أنها لا يتكَلَّفُ فيها توجيه الهواء إلى مضايق خلل الأسنان يحدث صغيراً والثاني أن الرطوبة التي يُحبسُ فيها الهواء بعد الإطلاق تكون أعظم ويدفعها الهواء منحصرأ فيها حتى يحدث منها فقاعة أكبر ثم تتفكَّعُ لا في مَضْيَبِيٍّ ولا يكون في لزوجة رطوبة الغين، فيحدث صوت الضاد⁽⁴⁾)).

(1) رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا، ص 62، 63.

(2) المصدر السابق، ص 76.

(3) المصدر السابق ص 135.

(4) المصدر السابق ص 119.

أما عن جهده في الصفات فلم يكن له بيان فيها فلم يصف الضاد إلا بأنها مفردة من وجه وهي راجعة أيضاً إلى المخرج ولعل السبب في ذلك هو أنه تكلم عن أسباب حدوث الحروف ولعل حدوث الحرف يختص بالمخرج أكثر من الصفة. وعلى كل حال لم يكن لابن سينا أثر كبير في الدراسة الصوتية العربية القديمة فلم يؤثر فيمن بعده من المتقدمين كما سيأتي.

خامساً : عند ابن يعيش ت 643 هـ :-

ابن يعيش : وهو شارح متن الرمنشيري في المفصل - أكد جهود السابقين فذكر أنها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنه عندما تكلم عن حيز الضاد زاد الياء غير المدية وجعلها من حيز الضاد وفي هذا توسع عن نص الخليل السابق وكذلك عبر عنه بأن سبب اشتراك الجسيم والشين والياء مع الضاد في الحيز هو اقتراب هذه الحروف من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس يقول في ذلك ((والضاد من حيز الجسيم والشين والياء ولها حيز واحد لأنها تقرب من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنك إن شئت تكفلتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر...))⁽¹⁾ ونلاحظ أن نص ابن يعيش ربط بين وصفين قد يظن أنهما مختلفان وهما نص الخليل وسيبويه فقد ذكر ابن يعيش الحيز الذي عند الخليل والمخرج عند سيبويه وعلل لاشتراك الحيز بين هذه الحروف بالاقتراب من المخرج المعروف للضاد وهذا التعليل لم نره عند غيره من السابقين وقال عن هذه الحروف ((شَجْرِيَّةٌ لأن مبدأها من شجر القسم والشجر ما بين اللحيين))⁽²⁾ كما أن ابن يعيش ناقش موضوع الضاد الضعيفة قال في ذلك ((الضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فرما أخرجوها ظاء وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا وربما راموا إخراجها من مخرجها المعتاد فلم يتأت لهم

(1) شرح المفصل لابن يعيش - المجلد الثاني - ج 10 ص 125، طباعة عالم الكتب بيروت مكتبة المتنبى القاهرة.

(2) المصدر السابق ص 131 ج 10 - المجلد الثاني.

فخرجت بين الضاد والظاء⁽¹⁾ وفي هذا شرح وبيان للضاد الضعيفة وفي شرحه لها سبق أيضاً فلم نجد أحداً تكلم عليها كما هي عنده؛ فالضاد الضعيفة هي كل إخراج للضاد من غير مخرجها المعتاد الفصيح هذا مايقوله ابن يعيش.

أما من جهة الصفات فقد أكد ابن يعيش⁽²⁾ الجهر والرخاوة والإطباق والاستعلاء وكون الضاد شَجْرِيَّةً وَوَكَّدَ الاستطالة. إلا أن ابن يعيش قد فرق بين المجهورة والشديدة بشيء من الوضوح فقال «الفرق بين المجهورة والشديدة أن المجهورة يقوى الاعتماد فيها والشديدة يشتد الاعتماد فيها بلزومها موضعها لا بشدة الوقع وهو ما ذكرناه من الضغط ألا ترى أن الذال والظاء بمجهورتان غير مضغوطتين فتقول (إذ إظ) فيجري معها صوت ما»⁽³⁾ ومن هذا النص فالضاد بمجهورة غير مضغوطة أي يقوى الاعتماد فيها بشدة الوقع ويجري معها صوت ما ثم فرّق بين المهموسة والرخوة فقال: «والفرق بين المهموسة والرخوة أن المهموسة هي التي تردد في اللسان بنفسها أو بحرف اللين الذي معها ولا يمتنع النفس والصوت الذي يخرج معها نفس وليس من الصدر وأما الرخوة فهي التي يجري النفس فيها من غير ترديد⁽⁴⁾ وهو صوت من الصدر، ابن يعيش يكاد يوضح لنا عقدة الصوت والنفس فيقول المهموسة تردد في اللسان ومعها نفس وصوت إلا أن الصوت الذي مع المهموسة هو ليس من الصدر وإن كان ابن يعيش يجعل هذا الصوت نفساً لكنه في السمع صوت وإلا لماذا يُعَبَّرُ عنه بالصوت. ثم يأتي للرخوة فيقول يجري معها نفس وصوت هو من الصدر ومن هنا نلاحظ أن ابن يعيش قال إن النفس والصوت يكونان في المهموس

(1) المصدر السابق ص 128.

(2) شرح المفصل لابن يعيش ص 129.

(3) من غير ترديد قال قدوري في الدراسات الصوتية من 149 لعله خلال أو تصحيف ولكن أظن أنه خروج الحرف غير منسل أما إذا اخرج منسل فهو متردد والإنسلاخ خلاف النسخ الذي تكلم عنه ابن جنى فالتردد هو الفرق بين الضاد والسين مثلاً والتردد هو الأنسلاخ.

والرَّخْوُ إلاّ أنه مَيَّزَ بينهما بالمصدر وهو الصدر في الرخو وليس منه في المهموس وهذه خطوة عظيمة وجليلة-وياليت ابن يعيش عقد مقارنة بين الشديدة والرخوة والمجهورة والمهموسة - وهنا فرق دقيق بين سيبويه وابن يعيش فسيبويه منع الصوت مع المهموس وابن يعيش منعه لكن حَدَّدَ موضع الصوت الممنوع وهو الذي من الصدر، ثم ذكر صفة الإطباق الذي كان ناقلاً فيها كلام سيبويه فيها وكذلك الاستطالة فُقُوَّةُ البحث عند ابن يعيش في الجهر والرخاوة فقد بحث فيها بعمقٍ ودقة.

بيان مُخْرَج الضَّادِ وصفته عند القُرَّاء :-

أولاً : عند مكّي بن أبي طالب القيسي — " 437 هـ " :-

لم يخالف مكّي من تقدّمه من علماء اللغة فسمى الضاد شَجْرِيَّةً⁽¹⁾ ثم ذكر المخرج⁽²⁾ كما هو عند سيبويه وقال إن الضاد تشبه الظاء ولولا الصفات وخصوصاً الاستطالة لكان لفظها واحداً في السمع ونجد أهل الأداء هنا يسهون على صعوبتها في النطق يقول مكّي ((ولابد له التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبة من لم يدرب فيه فلا بد للقارئ الجوّد أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية منطبقة مستطيلة فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها ومضى فرط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال، فيكون مبدلاً ومغيراً، والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج وأشدّها صعوبة على اللافظ فمضى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخل بقراءته ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعاً وسجية⁽³⁾) وفي النص على طولته دليل على اهتمام هذه الطبقة بالمخرج السليم والتنبيه على عدم التقصير فيه وبيان أهمية الرياضة في هذا المخرج.

أما في بيان الصفات فإن مكّي يعد أكثر القراء استقصاءً لصفات الحروف فقد ذكر الجهر للضاد وقال إن ((الحروف المجهورة⁽⁴⁾) هي أقوى من المهموسة المذكورة، وبعضها أقوى من بعض، على قدر ما فيها من الصفات القوية غير الجهر. وهذه الحروف هي ما عدا المهموسة المذكورة قبل هذا⁽⁵⁾) واضح بيانه لقوة

(1) الرعاية لمكّي بن أبي طالب ص 114.

(2) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(3) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(4) عبر مكّي المجهورة ولفه تصحيف.

(5) الرعاية لمكّي ص 92.

الحرف المجهور وكذلك جعل الجهر على درجات بقدر ما في الحروف من صفات القُوَّة كما أنه واضح تركيزه على الجهر من تأثيره في السمع وأن المجهور أوضح من المهموس عندما يقول «ومعنى الحرف المجهور أنه حرف فسوي يمنع النفس أن يجري معه عند النطق به لقوته وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه. وإنما لقب هذا المعنى بالجهر لأن الجهر الصوت الشديد القوي فلما كانت في خروجها كذلك لقيت به لأن الصوت يجهر بما لقوتها»⁽¹⁾ وظاهر تركيزه على أن الحرف المجهور هو القوي المُعْلَنُ وهو ضد المهموس الخفي وأن سبب الجهر والقوة هو قوة الاعتماد على المخرج.

ثم ذكر الرخاوة للضاد ولم يأت بجديد وقال إن الحرف الرخو «أضعف من الشديد»⁽²⁾ وعقد في الحديث عن الرخاوة مقارنة بين الضاد والصاد فقال «والضاد أقوى من الصاد لأن الضاد حرف مجهور مع أنه مطبق مستعمل (مستطيل) فالجهر الذي فيه، أقوى من الصفيّر الذي في الصاد فاعرف»⁽³⁾ وهو هنا يوضح قوة الاعتماد في الضاد ويبين أهمية الرخاوة فيقول «ولولا اخستلاف المخرجين والرخاوة لكانت الظاء ضاداً»⁽⁴⁾ ثم يتابع مكّي جهود اللغويين قبله في تعريف الإطباق وأن إطباقها متوسط⁽⁵⁾ وأن الضاد شبيهة بالظاء ويعطي نصيحة للتمييز بين هذين الحرفين فيقول «فيجب على القارئ بيان الظاء لتمييز من الضاد، والضاد أعظم كلفة وأشق على القارئ من الظاء...»⁽⁶⁾ وهو هنا ينبه على حالة التجاور بينهما ويريد إعطاء كل حرف حَقَّهُ.

(1) الرعاية لمكي ص 92.

(2) المصدر السابق ص 94 - 95.

(3) المصدر السابق ص 94 - 95.

(4) المصدر السابق ص 194.

(5) المصدر السابق ص 98.

(6) المصدر السابق ص 194.

ويقرُّ مكي بالاستعلاء للضاد ويقول عنه ((سميت بالاستعلاء لأن الصوت يعلو عن النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعلياً بالريح مع طائفة من اللسان مع الحنك مع حروف الإطباق المذكورة...))⁽¹⁾

ثم بعد الجهر والرخاوة والاستعلاء والإطباق ذكر الاستطالة وهي صفة اختصت بها الضاد عند مكي وهو يخالف سيبويه في ذلك الذي جعل الشين مستطيلة يقول مكي في ذلك ((الحرف المستطيل : وهو ((الضاد)) سميت بذلك لأنها استطالت على الفم عند النطق بها، حتى اتصلت بمخرج اللام، وذلك لما اجتمع فيها من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء فقويت بذلك واستطالت في الخروج من مخرجها حتى اتصلت باللام لقرب مخرج اللام من مخرجها))⁽²⁾ ثم انتقل إلى صفة التنفسي : وهي صفة ليس مجمعاً عليها بين العلماء فلم يذكرها سيبويه ولا ابن جني وإنما ذكرها المررد، ومكي هو الذي نقل لنا الخلاف في هذه الصفة فقال وقد ذكر بعض العلماء (الضاد) مع (الشين) وقال الشين تنفسي في الفم حتى اتصل بمخرج ((الطاء))، والضاد تنفسي حتى اتصل بمخرج اللام، قال : وسُمِّيَ هذان الحرفان المخالطَيْنِ لأهمما يخالطان ما يتصلان به من طرف اللسان⁽³⁾ وفي هذا النص يبين مدى التنفسي في الضاد، وجعل التنفسي مرادفاً للمخالطة ، وحدد المخالطة للضاد باللام ، والشين للطاء. إلا أن صفة المخالطة للضاد عند مكي لها معنيان أولهما كونها مرادفة للتنفسي كما مرَّ والثاني أنها بمعنى الحروف التي زادها العرب ويقول في ذلك ((الحروف المشربة، ويقال لها المخالطة - بكسر اللام وفتحها - وهي الحروف الستة التي ذكرنا أن العرب اتسعت فيها فزادت على التسعة والعشرين الحروف المستعملة، نحو الصاد بين الصاد والزاي، وهمزة بين، وشبه ذلك فهي مشربة بغيرها وهي مخالطة في اللفظ لغيرها وهي مخالطة

(1) الرعاية لمكي ص 88.

(2) المصدر السابق ص 104.

(3) المصدر السابق الصفحة نفسها .

لأن غيرها يخالطها في اللفظ⁽¹⁾ وواضح أن التفشي بالمعنى الأول هو الاستطالة عند سيبويه أما المخالطة في المعنى الثاني فهي امتزاج بين حرفين وتداخل بين لفظين وهو مرفوض في الضاد وأما لفظة المشربة التي جعلها مرادفة للمخالطة فهي تخالف الإشراب الذي عند ابن جني⁽²⁾ الذي هو حروف يخرج معها عند الوقف عليها نحو النفخ إلا أنها لم تضغط ضغط الأول...⁽³⁾ فالضاد ليست مشربة بمفهوم مكّي وهي مشربة بمفهوم ابن جني ثم جاء مكّي في باب جامع للضاد وذكر فيه جملة الصفات للضاد فقال ((وهو حرف قوي، لأنه مجهور مطبق من حروف الاستعلاء وفيه استطالة وله صفات وقد تقدم ذكرها والضاد يشبه لفظها بلفظ الظاء، لأنها من حروف الإطباق ومن الحروف المستعلية ومن الحروف المجهورة، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لكان لفظهما واحداً، ولم يختلفا في السمع⁽⁴⁾) ثم يبيّن على مواضع تكون فيهن الضاد أصعب من غيرها فيقول ((فيجب على القارئ أن يلفظ بالضاد إذا كان بعدها ألف بالتفخيم البين، ولا بد له من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبة من لم يدرب فيه. فلا بد للقارئ المحوّد أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية منطبقة مستطيلة فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها ومتى فرط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مبدلاً ومغيراً⁽⁵⁾) وهذا الموضوع درجة تميز لعلماء التجويد والقراء لأنهم يُعتنون بالأداء وكيفية النطق أكثر من غيرهم. وفي النص ذكر لصفة التفخيم وهي تغليظ الحرف وهي مهمة لهذا الحرف.

(1) سر صناعة الإعراب ص 73.

(2) لم أر من نبتة على الخلاف بين ابن جني ومكّي في هذه الصفة سوى غانم كنوري الحمد في الدراسات الصوتية.

(4) الرعاية لمكّي ص 109.

(5) المصدر السابق ص 114.

ثانياً : مخرج الضاد وصفته عند الشاطبي ت (590) هـ — :

يقول الشاطبي في حرز الأمانى ووجه التهاني عندما يتكلم عن موازين

الحروف :-

ووسطُهُمَا مِنْهُ ثَلَاثٌ وَحَاقَّةٌ أَلٌ
إِلَى مَا يَلِي الْأَضْرَاسَ وَهُوَ لَدَيْهِمَا
لِسَانٌ فَاقْصَاها لِحَرْفٍ تَطَوَّلًا
بِعِزٍّ وَبِالْيُمْنَى يَكُونُ مُقَلَّلًا⁽¹⁾

وواضح أنه بدأ الوصف من الحلق وتدرج إلى أن وصل وسط اللسان وما يحاذيه من وسط الحنك الذي يخرج منه ثلاثة أحرف الجيم والشين والياء ثم ذكر مخرج الضاد بعد هذه الحروف فقال هو من أقصى حافة اللسان أي أولها وهو الذي تطول إلى الموضع الذي يلي الأضراس من الجهتين يعنى من أقصاها أو من إحدى الجهتين وقال إنه يصعب خروجها من الجهتين وهي عزيزة منهما وهي من اليمين تخرج على قلة ومن اليسار - بمفهوم المخالفة - على كثرة هذا البيان الذي جاء في أبيات الشاطبي هو الذي أخذه عن الداني والبلنسي وابن نجاح الذين نراهم في شجرة أشياخ الشاطبي الذي يعرفون تعيين المخرج وقد نص الشاطبي على ضرورة الاعتماد على هؤلاء في نقل المخارج والصفات فقال :

«وَلَا بَدَّ فِي تَعْيِينِهِنَّ مِنَ الْأَلْيِ : عُنُوا بِالْمَعَانِي عَامِلِينَ وَقُولًا»⁽²⁾

دراية ورواية هذا ما يعنيه بقوله «عاملين وقولاً في البيت السابق».

وقد أثبت للضاد الجهر والرخاوة فقال في بيت يتحدث فيه عن حروف منها

الضاد :-

وَجَهْرٌ وَرَخْوٌ وَانْفِتَاحٌ صِفَاتُهَا
وَمُسْتَفْلٌ فَاجْمَعُ بِالْأَضْدَادِ أَشْمَلًا⁽³⁾
كما أثبت لها الإطباق فقال :-

(1) حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع للشاطبي - ص 187، صححه وراجعته متولي عبد الله الفقاوي، مكتبة ومطبعة

محمد علي صبيح وأولاده.

(2) المصدر السابق ، ص 177.

(3) المصدر السابق ص 180.

وَقِظْ خُصَّ ضَعُطَ سَبَعُ غُلُوٍّ وَمُطَبَّقٌ هُوَ الضَّادُ وَالظَّا أَعِجَمًا وَإِنْ أَهْمَلًا⁽¹⁾
وأثبت في الاستطالة :-

وَمُنْحَرِفٍ لَامٌ وَرَاءَ وَكُرِّرَتْ كَمَا الْمُسْتَطِيلُ الضَّادُ لَيْسَ بِأَغْفَلًا⁽²⁾

ثالثاً : عند ابن الجزري ت «833» هـ :

أقر المخرج كما عند الخليل وسيبويه إلا أنه لم ينقل كلام المخالفين للخليل في تفسير الشجر وسكت بل إنه أعطى رأياً قاطعاً في ذلك فقال «وقال غير الخليل: هو جمع اللحيين عند العنفة، فلذلك لم تكن الضاد منه»⁽³⁾ فهو إذن ينفي ما قاله المخالفون ويؤكد أنها من مفرج الفم. ولا جديد عند ابن الجزري في أمر الصفات إلا في الاستطالة حيث ذكر أن سبب التسمية هو أن الحرف «استطال عن الفهم عند النطق به حتى اتصل بمخرج اللام، وذلك لما فيه من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء»⁽⁴⁾ ولكننا نسأل هل معنى هذا أنها غير مفهومة الصفات؟ بديهاً فإن هذا لا يكون بل المراد - والله أعلم - أن الضاد توسعت وتفسحت في المخرج حتى دخلت على اللام فعند النطق بها وعند خروجها تلتبس على غير المحقق الحاذق فيظنها لاماً أو دالاً وقد قال بعضهم⁽⁵⁾ إن أصل الضاد لاماً فهي قد استطالت على فهمه كما استطالت في مخرجها. وقد أهمل الباحثون المعاصرون أكثرهم فيما رأيت هذه الصفة وبعضهم علل عدم فهمه هذه الصفات بأن الضاد التي فيها هذه الصفة غير موجودة وهذا تَمَحُّلٌ وابن الجزري يوضح أن الاستطالة هي الصفة المميزة فإذا استطالت على فهم الإنسان أخرجها من غير مخرجها ولعل هذا يتضح من قول ابن

(1) للمصدر السابق ص 180.

(2) المصدر السابق ص 180.

(3) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 1 - ص 200 - دار الكتب العلمية بيروت أشرف على تصحيحه علي محمد الضباغ شيخ المقارئ المصرية.

(4) المصدر السابق ص 204.

(5) للمستشرق يوهان فك عندما قال يُنطقها بعضهم لاماً مفخمة كما نقل كمال بشر عنه في علم اللغة العام 'الأموات' ص 107 -

لجرزي ((والضاد انفرد بالاستطالة. وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله فإن لسنة الناس فيه مختلفة. وقل من يحسنه، فمنهم من يخرج ظاء، ومنهم من يخرج ه الذال ومنهم من يجعله لاماً مفتحة ومنهم من يشبه الزاء وكل ذلك لا يجوز))⁽¹⁾ قد أكد ابن الجرزي على المشافهة والرياضة⁽²⁾ كما هو شأن القوم.

إبعاً : عند ابن غانم المقدسي «ت 1004هـ»

ونلتقي ابن غانم في مخطوطه المسمي «بغية المرتاد لتصحيح الضاد» ولم يخرج المخطوط إلى عالم الطبع والنشر ولكننا عثرنا على نُقْطٍ قليلة من نصوص لكتاب في دراسة قيِّمة وهي الدراسات الصوتية عند علماء التجويد⁽³⁾ فاعتمدنا هذا النقل ليكون مَعِيناً نَهْلُ منه آراء المقدسي في مُخْرَج الضاد فيقول عن سبب تأليفه الكتاب وهو السبب نفسه الذي جعلنا نختار بحثنا هذا وهو الغيرة على كتاب الله ولغته فيقول المقدسي ((لما رأيت بمحروسة القاهرة التي هي زين البلاد كثيراً من أفاضل الناس فضلاً عن الأوغاد يخرجون عن مقتضى العقل والنقل في النطق الضاد... ثم شاع الإنكار منهم علينا في كل ناد بين حاضرة وباد، فأردت مع طلب جمع من الإخوان وإشارة من بعض الأعيان أن أزيل الغين عن عين الرشاد.... وسميته بغية المرتاد لتصحيح الضاد))⁽⁴⁾ وفي هذا بيان واضح لإنكساره النطق المخالف للمُخْرَج المعقول المنقول وذكر أن هناك جماعة تنكر المخرج الصحيح ويذكر إنكارهم فيقول ((وقبل الخوض في المرام لا بد من تقرير الكلام وتحرير المقام، فليُعَلِّم أن أصل هذه المسألة أنهم ينطقون بالضاد ممزوجة بالذال المفتحة والطاء المهملة، وينكرون على من ينطقون بها قريبة من الظاء المعجمة بحيث يتوهم بعضهم

(1) النشر ص 219، ولعل في هذا النص تفريغ لكلام المستشرق.

(2) النشر ص 224.

(3) د. غانم قنوري الحمد - الدراسات الصوتية عند العلماء والتجويد - رسالة نكتواره طباعة دار الطلوع ببغداد سنة 1986م.

(4) المقدسي - بغية المرتاد لتصحيح الضاد، مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد رقم 7/11068 نقلاً عن كتاب الدراسات الصوتية

ص 270 - 271.

أنها هي، وليس كما توهمه، فنقول الكلام في إثبات ما أنكروه منحصر في مقدمة فيما يجب أن تقدمه وفصلين محيطين من الدلائل بنوعين وخاتمة تبيهاً ودفع لتمويهات⁽¹⁾ أشعرُ بل أحزم أن الرجل يردُّ على بعض أهل زماننا وفي هذا الكلام تحوُّلٌ كبير عند القراء من الوصف الإجمالي والأداء إلى الرد على الشبهة وبيان الالتباس وتصحيح الفساد بدقّة.

فالمقدسي يقول بوضوح الضاد ليست دالاً مفخمة ولا طاء مهملة بل هذا خطأً ويخالف المعقول والمنقول ويذكر أنها قريبة من الظاء وهؤلاء الذين يأتون بها دالاً عجزوا عن تمييزها وفسدت أسماعهم فلم تُعدُّ تعرف ما تقرب منه الضاد وما تبعد، فإذا اقتربت من شيء قالوا إنها هي هو وإذا نطقوا بها بعيدة وتبهاوا أنكروا على من خالفهم هذا لسان حال المقدسي في الموضوع ثم ينتصر إلى رأيه بأنها أقرب ما تكون إلى الظاء⁽²⁾ فيذكر أدلةً لاحت له بالنظر في المعقول بلغت اثني عشر دليلاً⁽³⁾ سأذكر ما يتعلق بالمرحج أولاً ثم بالصفة ثانياً وهي أدلة دقيقة فهاكها:-

1) أن علماء هذا الفن وغيرهم تعرضوا للفرق بينهما وبينوا الألفاظ التي تقرأ بالظاء والتي تقرأ بالضاد في مؤلفات مستقلة وغير مستقلة نظماً ونثراً... فباليت شعري لولا التشابه بينهما لفظاً والالتباس حتى خفي الفرق بينهما على كثير من الناس لم كان هذا الجرم الغفير يُتبعون القلم ويسودون القرطاس !!؟.

2) أن الضاد ليست في لغة الترك بل مخصوصة باللغة العربية... دَلَّ عليه قول الأستاذ أبي حيان في كتاب له في اللغة التركبية... إذا علم ذلك فليس مفقوداً في لغة الترك

(1) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(2) سنرى كيف يقول بعض الباحثين المعاصرين بأنها أي الضاد غير منطوقة وما ينطق هو الظاء وهو في البيئة التي أنكرت على المؤلف ذلك من بلاد مصر وسياقي في وصف المعاصرين ذلك إن شاء الله.

(3) بغية المرئاد لتصحيح الضاد للمقدسي - نقلاً عن الدراسات الصوتية عند علماء التجويد - من 273، 272، 274، 275.

إلا الضاد الشبيهة بالطاء المعجمة. أما هذا الحرف الذي يشبه الدال المفخمة والطاء المهملة ، الذي ينطق به أكثر المصريين ونسمة بالضاد الطائية فموجود في لغة الترك في أكثر ألقاظهم، كما يشهد به العارف في لغتهم بل السامع لكلامهم، والموجود غير المفقود، وبذلك يتم المقصود.

3) أن الفقهاء ذكروا أحكام من يبدل الضاد طاء ... ولم يتعرضوا لأحكام من يبدلها بحرف غير الطاء، كما تعرضوا لأحكام من يبدلها به، فلولا التشابه بينهما لما كانوا يفعلون ذلك...

4) أن هذا الحرف صعب على اللسان، نص على ذلك علماء هذا الشأن... فإذا كانت الضاد العربية بهذه المرتبة من الصعوبة، وأنت ترى أن لا صعوبة في الضاد الطائية بل هي في غاية السهولة على اللسان، يستوي في النطق العالم والجاهل، والفارس في هذا العلم والراجل، فإنك تعلم بأن الضاد الطائية بعيدة عن الضاد العربية بمراحل.

5) إن المخرج المنصوص عليه للضاد في الكتب المعروفة المتداولة ليس إلا للضاد الشبيهة بالطاء المعجمة لا للطائية فإنهم قالوا في معرفة مخرج الحرف أن تسكنه وتدخل عليه همزة وتنظر أين ينتهي الصوت، فحيث انتهى فثم مخرجه، فمثلاً نقول «اب» فتجد الشفتين قد أطبقت إحداهما على الأخرى، وهو مخرج الباء، وأنت إذا نطقت بالضاد الطائية وفعلت ما تقدم ذكره لا تجد الصوت ينتهي إلا إلى طرف اللسان وأعلى الحنك، وهو مخرج الدال والطاء والتاء. ولم نر أن أحداً ذكر أن مخرج الضاد من هذا المحل، بل ما ذكرناه لها من المخرج المذكور في كتب لا تحصى في علم القراءات وعلم النحو... فإن قيل : نحن نروي هذه الضاد الطائية بالمشافهة عن الشيوخ الراوين عن شيوخهم بالإسناد المتصل بأئمة القراء البالغ إلى

التي صلى الله عليه وسلم قلنا لا عبرة بالرواية المخالفة للدراية، إذ شرط القراءة أن توافق العربية وقد بينا مخالفتها لما تواتر في كتب العربية والقراءات.

6) أن من أوصافها ((الشجرية)) لقبها بما صاحب القدر الجليل إمام النحو الخليل ولا يأتي ذلك إلا إذا كانت شبيهة بالطاء، فإن الضاد الطائية تخرج من طرف اللسان لا من شجر الفم..."

7) أن أهل مكة التي هي منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو سيّد العرب، وماوالها من بلاد الحجاز التي هي محل العرب وموطنهم إنما ينطقون بالضاد شبيهة بالطاء المعجمة ولا يسمع من أحد منهم هذه الطائية، وهم نعم المقتدي لمن رام في هذا السبيل الاهتداء.

8) أن بعض العلماء وصفها بالتفشي، ولا تفشي فيه...

9) أنهم ذكروا أن من صفاتها النفخ ويشاركها فيه الطاء والذال والزاي ولا يتحقق ذلك إلا بالضاد الشبيهة بالطاء، أما الضاد الطائية فلا توجد فيها هذه الصفة كما يشهد به من أحاط بالمقدمة معرفة.

10) أنهم ذكروا من صفاتها الاستطالة، كما مر ذكرها ومعناها في المقدمة وهي الميزة لها عن الطاء، ولا يوجد في الضاد الطائية الاستطالة.

11) أنهم ذكروا من صفاتها الرخاوة، وهذا شديد، الدلالة عند من ليس عنده غباوة فإنه لا رخاوة فيها إلا إذا أتت شبيهة بالطاء. أما الضاد الطائية فمشوبة بالذال والطاء المهملة، وكل منهما حرف شديد فكذا ما هو بينهما، بل من عرف معنى الشدة والرخاوة وقدمناهما في المقدمة يجد هذا الحرف متصفاً بالشدة قطعاً، مع قطع النظر عن الذال والطاء.

12) قولهم في صفة الإطباق : ولولا الإطباق لصارت الطاء ذالاً، والصاد سيناً، والطاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، إذ لا يخرج من موضعها غيرها. وهذا نص كلام

الاستاذ أبي حيان في شرح التسهيل، ومثله في شرح المفصل لابن يعيش وهذا كما ترى يخص الضاد الشبيهة بالظاء، أما الطائفة فتخرج من مخارج الحروف النطعية، كما يشهد به الحس والقاعدة المعروفة في معرفة مخرج الحرف فلو كانت الطائفة عربية لوصفت بالنطعية، كما وصفت أخواتها، ولقالوا لولا الإطباق لصارت الضاد دالاً، بدل قولهم لخرجت من الكلام، كما لا يخفى عن ذوي الأفهام.

ومن الأدلة الأثني عشر السابقة التي أراد المقدسي إثبات شبه الضاد بالظاء لاغيرها نلاحظ أن المقدسي لم يأت بجديد في المخرج ولكن بيّن أنه قريب في سماعه من الظاء أما من ناحية الصفة فقد وافق سببويه أنه لا تفشي في الضاد ووافق ابن جني في صفة النفخ وأكد الاستطالة وشجرية الضاد وأقر الإطباق ثم في الفصل الثاني من الكتاب نفسه ذكر ما يدل «بالتصريح على أن التلفظ بالضاد شبيهة بالظاء هو الصحيح، وهو المنقول من كلام العلماء الفحول المتلقي كلامهم بالقبول»⁽¹⁾ وقد سرد المقدسي اثني عشر نصاً وهذه النصوص القيمة لم نثر عليها، ثم جاء في خاتمة الكتاب وثبّه على أمور «الأول : أنه ليس مرادي بكون الضاد شبيهة بالظاء وقريبة منها كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج بحيث يخفى الفرق بينهما على المجيد لفن التجويد...»⁽²⁾

ثم ذكر الرد على قول من فسر صعوبة الضاد العربية بصعوبتها على المعجم والترك ونحوهم مما سوى العرب أما على أمثاله من العرب فلا صعوبة فيها⁽³⁾ ونحتم هذه التنبيهات بقوله «إذ من ينطق بالضاد من مخرجها الخالص مع صفاها المميزة لها حتى عن الظاء فهو في أعلى مراتب النطق بها ومن الفصاحة ودونه من ينطق بها من مخرجها مشوبة بالظاء لكن من مخرجها وبينهما نوع فرق ودونه من ينطق بها ظاء

(1) الدراسات الصوتية ص 274.

(2) المصدر السابق والصفحة نفسه.

(3) المصدر السابق الصفحة نفسها.

خالصة ، ومن يشمها الذال، ومن يشمها الزاي، ومن يجعلها لأمأ مفخمة، وكذا من ينطق بالضاد الطائية فهو في أسفل مراتب النطقية بالنسبة إلى من سبق ذكره...»⁽¹⁾
لقد ناقش المقدسي في موضوع الضاد بأسلوب بعيد عن الجسد المنطقي واعتمد أسلوب النقاش العلمي الرصين مع غوص في فهم الظواهر الصوتية المختصة بالضاد، وقد سجل غانم قدوري الحمد بعض الملاحظات التي وردت في الكتاب فقال:-

1) سجل المؤلف النطق الشائع في عصره لصوت الضاد، فأهل مصر ينطقون بها دالاً مفخمة ممزوجة بالطاء، - وسماها المؤلف الضاد الطائية-وأهل مكة و الحجاز ينطقون بالضاد شبيه بالطاء ويفهم من كلام المؤلف أنه لا يزال هناك من ينطق بالضاد العربية في زمانه.

2) حدد المؤلف مخرج الضاد الطائية وصفاتها التي ينطق بها أهل مصر "راجع الأدلة" فقد أدرك أنها من مخرج الطاء والذال والتاء، وأدرك أنها الصوت المطبق المقابل للذال، حيث قالوا: لولا الاطباق لصارت الضاد دالاً⁽²⁾ والواقع أن كلام المحذنين⁽³⁾ عن العلاقة الصوتية بين الضاد والطاء لم يتجاوز ما قرره المقدسي في كتابه «بغية المرتاد في تصحيح الضاد» إلا ما يدخل في باب التكرار والبيان.

خاصاً : عند الصَّفَاقِسِيِّ " ت 1053 هـ "

لقد ذكر في وصف مخرج الضاد ما لم يُهْمَلْه أحدٌ قبله في ماهيتها إلا أنه ذكر جملة تحتاج وقفة خاصة وهي قوله «والضاد والثلاثة قبله تسمى الشجرية نسبة إلى شجر الحنك وهو ما يقابل طرف اللسان وقال الخليل الشجر مفتوح الفم وعليه

(1) المصدر السابق ص 275-276.

(2) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 275 - 276.

(3) ولزن بين كلام المقدسي وما قاله إبراهيم أنيس في الأصوات اللغوية ص 63 ، 64 والدكتور كمال بشر في كتابه علم اللغة العام الأصوات ص 131 ص 134 وسياقي.

فسميت بذلك لانفتاح الفم عند النطق بها أكثر من غيرها ونظر بعضهم فيه⁽¹⁾ بعد تقرير المخرج المتفق عليه للضاد في كونها شجرية الحيز ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ذكر الصفاقسي هنا الشجر وهو من الحنك وهو ما يقابل طرفه، لكنه لم يقل بأن الضاد من طرف اللسان ((كما قد يُتبادرُ إلى الأذهان)) لأننا نعلم مُسبقاً أن الشجر هو حيزٌ للجيم والشين أيضاً اللذين هما من وسط اللسان والضاد من حافة اللسان فالشجر أجزاء أوله ما يقابل طرف اللسان كما ذكر ومنه القاف ثم وسطه وهو يقابل وسط اللسان ومنه الجيم والشين ثم بعد ذلك الضاد التي هي من حيز الجيم والشين إلا أنها من حافة اللسان فالصفاقسي عرّف الشجر بأوله وهو ما يقابل طرف اللسان ولم يقل بأن الضاد من طرف اللسان وإذا قلنا بذلك فإن الجيم والشين والياء غير المدية هي كذلك من طرف اللسان وهذا بدعٌ من القول لم يقل به أحد من المتقدمين ولعلي أكون قد أطلت في نفي كون الضاد من طرف اللسان كما قد يُقولُ بعضهم الصفاقسي وذلك من أجل نفي هذه الشبه عن الحرف الذي نسبت اللغة إليه. ثم بعد تعريفه للشجر قال⁽²⁾ بأنه مفتوح الفم عند الخليل ومعناه أن الفم ينفتح عند النطق به أكثر من غيره وقد سجل الصفاقسي لحن أهل المغرب في مخرج هذا الحرف فقال ((ويقع الخطأ فيه من أوجه، منها إبدالها ظاءً مشالة وهذا هو الكثير الغالب وأهل المغرب الأدنى كلهم عليه....))⁽³⁾ وهو متفق مع المقدسي في شبه الضاد بالطاء ومن النص فأهل المغرب قرييون من الضاد وحذاقهم عليها أي الضاد ويخرجونها من مخرجها هم قليل وذلك عندما يقول "وقل من يحسنه من سمسرة العلماء فضلاً عن غيرهم....))⁽⁴⁾ فلم يقل إنها مفقودة ولكنه قال قليل أهلها أي

(1) للصفاقسي: تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين - تصحيح محمد الشاذلي النيفر

ص 34 - مطبعة المكتبة القرآنية.

(2) المصدر السابق ص 34.

(3) المصدر السابق الصفحة 83.

(4) للمصدر السابق ص 83.

الضاد منذ أقل من أربعمئة سنة موجودة أمّا عن صفاتها فلا جديد يذكر عنده فقد قال ((وهو حرف مجهور رخو مستعل مطبق مصمت مستطيل قوي مفخم...))⁽¹⁾
سادساً : عند المرعشي " ت 1150م " :-

يأتي المرعشي في كتابه المتخصص في أمر الضاد والمخطوط المسمى ((كيفية أداء الضاد))⁽²⁾ وقد وافق المقدسي والصفارسي في شبه الضاد بالطاء وقد تكونت مخطوطته من مقدمة ومقصد وخاتمة أما المقدمة فهي في توضيح صفات الضاد الصوتية وبيان علاقتها ببعض الأصوات ويا ليتنا نظفر بهذه المخطوطة التي لا بد أن فيها أموراً مفيدة تتعلق بالبحث فأما المقصد ((فهو أن ما شاع في أكثر الأقطار من تلفظ الضاد المعجمة كالطاء المهملة في السمع بسبب إعطائها شدة وإطباقاً أقوى كإطباق الطاء وتفخيماً بالغاً كتفخيمها خطأ بوجه))⁽³⁾ أما الخاتمة فقد بحث فيها موضوعات منها إجابته عن السؤال ((فإن قلت : فكيف شاع التقصير في أكثر الأقطار ؟ قلت: ألم تسمع ما قاله صاحب الرعاية: التحفظ بلفظ الضاد المعجمة أمر يقصر فيه أكثر من رأيت ... وذلك في تاريخ أربعمئة وعشرين، وزماننا هذا أحق بالتقصير، فلعل غلط المصريين قد شاع...))⁽⁴⁾ وهنا تعليل للتقصير لم نجده عند أحد قبله سوى المقدسي وهو أن المصريين من غير القراء هم الذين أشاعوا هذا الخطأ وسترى ذلك عندهم في آراء المحدثين منهم وحتى من تكلم في المسألة ممن سواهم فقد تأثر بهم.

(1) المصدر السابق ص 83.

(2) كيفية أداء الضاد المرعشي - مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد - رقم 6/11068 نقلًا عن الدراسات الصوتية لتتوري ص 277.

(3) المصدر السابق - ص 227.

(4) المصدر السابق الصفحة نفسها.

وللمرعشي أكثر من جهد في مجال الضاد عاد إلى إثارة أمرها من جديد في مخطوط آخر وهو «جهد المقل»⁽¹⁾ قال المرعشي في خاتمة كلمة الفصل وهي «فإن لفظت بالضاد بأن جعلت مخرجها حافة اللسان مع ما يليها من الأضراس، بدون إكمال حصر الصوت، وأعطيت لها الإطباق والتفخيم الواسطين، والرخاوة والجهر والاستطالة والتفشي القليل، فهذا هو الحق المؤيد بكلمات الأئمة في كتبهم، ويشبهه صوتها حينئذ صوت الظاء المعجمة بالضرورة، وماذا بعد الحق إلا الظلال، وإلشكال أمر الضاد أطنبت في الكلام، وقد أفردت لها رسالة»⁽²⁾

وفي ختام كلام المرعشي عن المخرج فإن الضاد منذ أقل من ثلاثمائة سنة كانت موجودة هذا إذا أخذنا سنة وفاة المرعشي في حُسباننا.

أما من ناحية الصفات فناقش المرعشي بوضوح أكثر من كل السابقين وليس من الإطراء أن أقول إن سيويه قد تكلم والمرعشي قد شرح وبيّن.

ناقش المرعشي الجهر فقال مُنْهِياً مُشْكَلةَ الصَّوْتِ وَالتَّنْفِيسِ وَقَضِيَّةَ صَوْتِ الصَّدْرِ وَصَوْتِ الفَمِ - «إن نفس الحرف إن تكيف كله بكيفية الصوت حتى حصل صوت قوي كان الحرف مجهوراً، وإن بقي بعضه بلا صوت يجري مع الحرف كان الحرف مهموساً»⁽³⁾

أقول (المرعشي): هذا الفرق يتحقق في القراءة جهراً، فالمراد من الصوت القوي الجهر، وقوله بلا صوت يعني بلا صوت جهري يجري مع مبدأ الحرف. فإذا قلت: اذ بالمعجمة، ومددتها تجد نفسها كله متكيفاً بصوت جهري. وإذا قلت: اص بالمهملة، ومددتها تجد مبدأ نفسها متكيفاً بصوت جهري آخره خالياً عن ذلك الجهر بل متكيفاً بصوت خفي، وقس عليهما. فالضاد المهمله بعض

(1) جهد المقل للمرعشي محفوظ في مكتبة المتحف ببغداد رقم 6/11268 - نقلاً عن الدراسات الصوتية ص 278.

(2) المصدر السابق ص 279 وهو يشير بقوله رسالة على كيفية أداء الضاد السابقة.

(3) المصدر السابق ص 136.

صوتها مجهور وبعضه مهموس لكن الاصطلاح وقع في أنها مهموسة، وكذا سائر حروف الهمس. وأما في القراءة إسراراً فلا يتحقق هذا الفرق، وهو نظري⁽¹⁾

وإذا قسمنا هذا على الضاد فالضاد نفسها متكيف كله بكيفية الصوت ويحصل معها صوت قوي الذي هو الجهر وهي خالصة الجهر ولا يتضح هذا إلا في القراءة الجهرية. وأضاف جديداً لتوضيح معنى الجهر عندما قال «أن نفس الحرف المجهور قليل ونفس الحرف المهموس كثير»⁽²⁾ وأوضح من ذلك قوله «لكن جرى النفس في المهموس الرخو أكثر من جريه في المجهور الرخو»⁽³⁾

ثم يتحدث عن الرخاوة فيقول هي التي يجري معها نفس الحرف والصوت جريانا كاملا وسمى الرخوة مطلقاً⁽⁴⁾ ضد المحبوسة وهي الشديدة وتسمى الرخوة بأنها زمانية والشديدة آنية، قال في ذلك «في شرح المواقف إن الحروف الشديدة آنية لا توجد إلا في آن حبس النفس، وما عداها زمانية، يجري فيه الصوت زماناً»⁽⁵⁾ فالضاد زمانية بهذا التقسيم وهي إضافة موضحة لصفة الرخاوة، وهأنذا أنقل نصاً طويلاً للمرعشي هو مهم يتضمن وجهة نظر متكاملة وواضحة لبيان علاقة النفس والصوت يقول «اعلم... أن صوت الحرف، وإن كان مجهوراً، فهو لا يتحقق بدون النفس، لأن حقيقة الصوت هي النفس المسموع، كما سبق فاحتباس الصوت يستلزم احتباس النفس معه وجريه جريه، وأن نفس الحرف وإن كان مهموساً فهو لا ينفك عن الصوت، لأن حقيقة الحرف هو الصوت المعتمد على المخرج كما سبق. وأن نفس الحرف المجهور قليل، ونفس الحرف المهموس كثير... إذا علمت هذا فاعلم أن صوت الحرف ونفسه: إما أن يحتبس بالكلية فيحصل صوت شديد، وهو في الحروف

(1) المصدر السابق ص 136.

(2) جهد المقال نقلاً عن الدراسات الصوتية ص 138.

(3) جهد المقال نقلاً عن الدراسات الصوتية ص 138.

(4) المصدر السابق ص 145.

(5) المصدر السابق والصفحة نفسها.

الشديدة أولا يحتسبنا أصلا بل يجريان جريانا كاملا... فهذه ثلاثة أنواع: النوع الأول: إن جرى بعد ذلك الاحتباس نفس كثير فالحرف شديد مهموس، وإن لم يجر فالحرف شديد مجهور وفي النوع الثاني كله مع نفس قليل فالحرف رخو مجهور إن كان جاريا كله مع نفس كثير فالحرف رخو مهموس والنوع الثالث: مجهور كله...⁽¹⁾ والضاد كما هو واضح من النوع الثاني الرخو المجهور الذي جرى فيه الصوت جريانا كاملا مع نفس قليل. هذه أهم الصفات التي ناقشها المرعشي وقد أثبت بقية الصفات التي مرت.

وفي ختام الحديث عن مخرج الضاد وصفته عند المتقدمين قراء ولغويين أقول إنه ما زالت في جمعة المتقدمين فوائد عديدة وتحريرات رشيدة ولكنها ما زالت في خزانات المتاحف مخطوطة⁽²⁾ تنتظر ساعة الفرج.

وخلاصة المخرج عند المتقدمين أنه من حيز الجيم والشين إجمالا ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إجمالا ولا يشاركها في مخرجها الخاص حرف آخر وهي أشبه ما تكون بالظاء وليست هي ولها مع طرف اللسان عموم وخصوص فالعموم أن كلا منهما من الطرف والحافة نهاية اللسان إلا أن الطرف هائتة طولاً والحافة هائتة عرضاً والخصوص أن الضاد من الحافة لا يشاركها في مخرجها حرف آخر وأنها أصعب الحروف وأعسرها على اللسان وأن القراء حرصوا على مشافهتها على مر السنين وقد ثبت لها ثلاث عشرة صفة وهي شجرية مجهورة رخوة مستعلية مطبقة مشربة مصمتة مفخمة قوية مفردة مستطيلة متفشية زمانية شبيهة بالظاء وقد لاحظنا مما سبق أن هذه الصفات كانت متوفرة للضاد إلى زمن المرعشي الذي فصلنا

(1) جهد النقل نقلا عن الدراسات الصوتية ص 151.

(2) منها على سبيل المثال: أ- المرصاد الفارق بين الظاء والضاد للجبري، ب- غاية المراد في إخراج الضاد لابن النجار.

ج- رسالة الرد على المرعشي في الضاد للازميري، د- رد الإلهاد في النطق بالضاد للمنصوري.

هـ- السيف المسلول على من ينكر المنقول في حق أداء الضاد للبروسي. نكر هذه وغيرها غانم قدوري الحمد ص 39 في

الدراسات الصوتية.

عنه مائتا عام تقريبا ووجدنا أن قمة الوصف عند القراء وعلى رأسهم المرعشي الذي للأسف ليس بين أيدينا كتبه كاملة بل هي نتف من نقول عن كتب أخرى ولكن هذه النقول أثبتت أن الضاد في زمن المرعشي ليست طائية ولا دالية ولا طائية بل هي كما وصفها المتقدمون وكما بينا في بحثنا هذا وبقي لنا الآن أن نشرع في بيان مخرج الضاد وصفته عند المُحدِّثين ونقارن هذا الوصف بما تقدمه وماذا حقق المحدثون في بيان هذا الحرف مخرجا وصفة.

الفصل الثاني

بيان مخرج الضاد وصفته عند المحدثين

لقد تداول المحدثون بينهم آراء المتقدمين بالبحث والمناقشة ولكن كان بينهم فوارق في عديد من المسائل كما سيظهر وستلاحظ أن وراء كل عالم من المحدثين مستشرقاً يطمئن إلى أقواله أو يستدل بها فإبراهيم أنيس يعتمد كلام أ.شاده وكمال بشر يرجح كلام يوهان فك وحسن ظاظا مع الأب فليش وعمود السعران مع جان كاتينو وغيره وهلم جرا ولا يعتمد هؤلاء جميعاً المشافهة ولا يعتمدون على آراء علماء التحويد فلا تجد ذكر العلماء التحويد ومناقشة آرائهم إلا عرضاً والمحصرت في ابن الجرزي ومكي على الرغم من أن بعضهم تجده نقل بتصرف عن المرعشي والمقدسي ولا يذكر ذلك وينحصر في نظري جهد المحدثين في اكتشاف الوترين الصوتيين اللذين ألغى هما نطق الضاد كما ستلاحظ مع أن هذه النتيجة قابلة للتغيير لأنها تجريبية وليست معتمدة على المشافهة عن العرب أو عن القراء المشافهين لمن سبقهم.

أولاً: عند إبراهيم أنيس :-

يقول إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية «الضاد كما نطق بها الآن في مصر لا تختلف عن الدال في شئ سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق ، فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى مُتَّخِذاً شكلاً مقعراً كما يرجع إلي السوراء قليلاً»⁽¹⁾ وهنا بعد قراءتك للمبحث المتقدم في مخرج الضاد تعلم أن المرعشي عندما رد على أهل مصر ضادهم التي تشبه الدال هو يرد على إبراهيم أنيس أيضاً.

فإبراهيم أنيس يصف الضاد عند المصريين عامة فهو هنا يصف الخطأ ولا يصف الصواب ويميز الضاد بالإطباق وسيأتي الكلام عنه ، أما ما أريد قوله هو أن ذكره

⁽¹⁾ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص 48-الطبعة الرابعة سنة 1987م - مكتبة الأنجلو المصرية.

بأن الضاد عند المصريين دال لا جديد فيه وهو خطأ معروف ومردود عند القراء وقد شخصه المرعشي وغيره وسلم نطقهم منه ثم بعد ذلك يأتي فيقول ((الضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان ، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتاً انفجارياً هو الضاد كما ننطق بها في مصر...))⁽¹⁾ وفي هذا الكلام وصف جديد لمخرج الضاد لم يقل به أحد من المتقدمين بل هو خطأ شائع نهبوا عليه وهو كون الضاد من طرف اللسان بأصول الثنايا العليا أي من مخرج الطاء والدال والتاء وهذه الضاد تختلف عن نطق الخذاق والقراء لها ثم ذكر إبراهيم أنيس حركة الوترين الصوتيين وتوسع إبراهيم أنيس في دائرة وصف المخرج فنظر في نطق غير المصريين فقال ((ولا يزال العراقيون حتى الآن وبعض البدو ينطقون بنوع من الضاد يشبه إلى حد ما الطاء كما يشبه إلى حد كبير الوصف الذي روي لنا عن الضاد القديمة...))⁽²⁾ وأقول هنا هذا تقرير واضح بأن الضاد ما زالت موجودة في هذه البيئات التي ذكرها وكذلك في شرق ليبيا وغيرها فإنها ضاد فصيحة وأري أن الأمر نسي في كل جهة لأن الناس منهم من ينطقها بفطرتها وبطبعه، ويتحقق وجودها على السنة القراء الذين يحققونها ولهم دراية ورواية وهم قلة قليلة في كل هذه الجهات فبيئتنا درجات في نطق الضاد فمنهم من ينطقها طاء ومنهم من يخرجها بين بين وهم العامة أما القلة المحققة فهي تخرجها من ((بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس))⁽³⁾ وهم القراء خاصة وعندما نعود لنناقش إبراهيم أنيس في النص السابق نجد أنه يقرر كلام المقدسي والصفاسي والمرعشي إذ أثبت المقدسي بأثني عشر دليلاً أن الضاد شبيهة بالطاء وقد مر بك ذلك عندما قال ((الفصل الثاني : فيما يدل بالتصريح على أن التلفظ بالضاد شبيهة بالطاء هو الصحيح ، وهو المنقول من كلام

(1-2) إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص 48.

(3) سيويه الكتاب ص 433-ج 4 .

العلماء الفحول المتلقي كلامهم بالقبول»⁽¹⁾ ويبدو واضحا أن إبراهيم أنيس لم يطلع على هذه النصوص المهمة التي ما زال بعضها مخطوطا الذي أخذناها من دراسة قيمة وهي «الدراسات الصوتية عند علماء التجويد» لغام قدوري الحمد.

ويقرر إبراهيم أنيس في آخر كلامه في النص السابق «أنها تشبه إلي حد كبير ذلك الوصف الذي روي لنا عن الضاد القديمة ولعل ما منعه من تقرير أن الضاد موجودة على ألسنة القراء هو الاختلاف في مفهوم الجهر والهمس والرخاوة والشدة كما سيأتي وإني معه على أن أغلب العامة لا تحقق هذا المخرج إلا أن القراء يعرفونه ويحققونه وأعني بالقراء القلة القليلة وهو نفسه يقول «وإذا حاولنا تطبيق الوصف الذي جاء في كتاب سيبويه على النطق السائد الآن في العراق وشرق الأردن وجهات أخرى من البلاد العربية لاحظنا فرقا دقيقا بين الضاد القديمة والتي ينطق بها في هذه المناطق لعل الفرق في الصفات وليس في المخرج الذي دلت بعض نصوص المتقدمين على أن بعض الناس يخرج بطبعه وإذا كان الفرق دقيقا كما يقول إبراهيم أنيس - بين الضاد المنطوقة عند عامة هذه الجهات التي ذكرها فلا بد أن هذا الفرق يزول عندما تستمع لحذاق القراء إذا أخذنا في نظرنا فهم المتقدمين للصفات وخاصة المرعشي والمقدسي اللذين فهما نصوص المتقدمين حق الفهم.

وفي نص آخر يؤكد إبراهيم أنيس شيئا آخر ينفيه الواقع التاريخي يقول «والذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد العربية قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلي ما نعهده لها من نطق في مصر ، وأن هذا التطور كان قد تم في عهد ابن الجوزي أي في القرن الثامن الهجري»⁽²⁾ هذا التطور مقبول في كلام الناس ولهجاتهم غير مقبول في القرآن الكريم وقراءاته وغير مقبول كونه

(1) للمقدسي بغية المرتاد في تصحيح الضاد نقلا عن الدراسات الصوتية لقدوري ص 274.

(2) إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ، ص 49.

حصل في عهد ابن الجرزي لأن باحثاً⁽¹⁾ آخر يؤكد أن هذا الخلل والخطأ في الضاد حصل في عصور متقدمة على ابن الجرزي ففي القرن الخامس وجد هذا الفساد عندما يصرح عبدالوهاب القرطبي أن أكثر القراء ينطقونها ظاء ، وفي القرن السادس يقول ابن وثيق ((وقل من يحكمها في الناس))⁽²⁾ ومن هذا أقول ما أكدته أنيس ينفية الفصل الأول من هذا البحث عندما وجدنا سببوية تحدث عن الضاد الضعيفة فالخطأ وارد فيها في زمن عمر بن الخطاب أيضا فهذا الخطأ ليس تطورا ولم تكن بدايته من ابن الجرزي كذلك يعتبر إبراهيم أنيس أن مخرج الضاد ((كان إحدى خصائص لهجة قريش))⁽³⁾ وهذا الكلام غير معقول فالقرآن الذي نزل على سبعة أحرف (لهجات) جاء بحرف الضاد والقراء يجمعون على وجوده في جميع القراءات القرآنية التي جاءت به وإن أخذنا بما قاله من خصوصية قريش بالضاد فلا بد أن هذه الخصوصية قد عمّت بدليل أن بعض كتبة الوحي لم يكن قرشيا ولكن يستحيل أن يقرأ الضاد بغير صفتها الفصيحة قرشية أو غيرها .

ويتخيل إبراهيم أنيس الضاد فيقول ((والضاد القديمة كما أتخيلها يمكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهي نطقه بالظاء))⁽⁴⁾ وهذا تخيل كما عبر لأنه عندما يبدأ بها ضادا حديثة فهو يخرجها من طرف اللسان وهذا خطأ وفساد ولا يصحح ولا يعطي تصورا سليما ثم يهتمها بالظاء وهذا من المخاذير فيها وخلل أيضا ، وواضح أن خياله لم يسعفه لأنه لم يحددها ولم يأخذها عن أهلها فالضاد رواية ودراية فهو لم يروها عملا ونطقا ورياضة كما هو الحال عند القراء وقد ركز إبراهيم أنيس على صفتين هما الجهر والرخاوة في حرف الضاد يقول ((وحين تنقبض فتحة الزمار

(1) غاتم فدوري الحمد الدراسات الصوتية . ص 270

(2) غاتم فدوري الحمد الدراسات الصوتية . ص 270

(3) إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ، ص 49

(4) المصدر السابق والصفحة نفسها.

يقترّب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار ، ولكنها تظل تسمح بمرور النفس خلالها فإذا اندفع الهواء خلال الوترين وهما في هذا الوضع يهتز انهما منتظما ويحدثان صوتا موسيقيا تختلف درجته حسب عدد هذه الهزات أو الذبذبات في الثانية، كما تختلف شدته أو علوه حسب سعة الاهتزازة الواحدة . وعلماء الأصوات يسمون هذه العملية بـ«جهر الصوت»⁽¹⁾ فالجهور هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان بسبب اندفاع الهواء وهذا معني كلام المرعشي «أن نفس الحرف إن تكيف كله بكيفية الصوت حتي حصل صوت قوي كان الحرف مجهورا»⁽²⁾.

وقد أقر أنيس والمحدثون جهرية الضاد فقال «والأصوات الساكنة المجهورة في اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هي ثلاثة عشر : (ب ج د ذ ر ض ظ ز ع غ ل م ن) ⁽³⁾(4) وهنا اتفاق بين المتقدمين والمحدثين في كون الضاد مجهورة وأن فيها صوتا ونفسا إلا أنها قليلة النفس كثيرة الصوت.

وتكلم عن الرخاوة فقال «أما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباسا محكما ، وإنما يكتفي بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقا جدا ويترتب على ضيق المجري النفس في أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعا من الصغير أو الخفيف نسبته تبعا لنسبة ضيق المجري ..»⁽⁵⁾ وقارن هذا بكلام المرعشي الذي يقول «إن كان صوت الحرف جاريا كله مع نفس قليل فالحرف رخو مجهور»⁽⁶⁾ ومن هذين النصين لأنيس والمرعشي فالهواء الذي يهز الوترين الصوتيين باندفاع هو الصوت المجهور والهواء الذي يحتبس انحباسا غير كلي يحدث النفخ أو الإشراب هو

(1) إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ، ص 20.

(2) جهد المقل نقلا عن الدراسات الصوتية ص 136.

(3) إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ، ص 20.

(4) أسقط من المجهورة اللغاف والطاء وهذا أمر يخالف فيه المتقدمين .

(5) إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ، ص 20.

(6) جهد المقل نقلا عن الدراسات الصوتية ص 151.

رخاوة الصوت أو احتكاكيته فالرخاوة عند أنيس هي محل الخلاف بينه وبين المتقدمين وقد أنكر وجود الضاد لأنه فقد رخاوتها وليس له دليل في ذلك إلا أقيسة لأجهزة متغيرة قابلة لإثبات ما نفتته بالأمس.

ثانياً: عند كمال محمد بشر:

الذي جعل الضاد من مخرج تشترك معه فيها أحرف أخرى فقال ((أسنانية - لثوية- وهي التاء والذال والضاد والطاء واللام والنون))⁽¹⁾ وهذا هو المخرج الذي ذكره أنيس قبله وهو وصف لمخرج اللهجة المصرية وهو نطق الباحث نفسه - كمال بشر- وهذا لحن نبه عليه المرعشي وغيره كما مر .

ثم يأتي ليشرح كلام سيبويه في المخرج الأول فيقول ((فكان الضاد عنده قريية من وسط الحنك ، أو هي أقرب أن تكون لثوية حنكية ، ولكن مع السماح بمسور الهواء من أحد جانبي الفم أو منهما معاً))⁽²⁾.

وقد ورد نفي لهذا التحليل على لسان الباحث ونيس مفتاح القماطي فقال ((إذ لو كانت لثوية حنكية لكانت من مخرج الشين والجيم))⁽³⁾ ويقرر أنها حنكية كما فهم ونيس القماطي من كلام سيبويه وابن جني وإني معه فيما ذهب إليه من أنها حنكية أي (شجرية) ومع كمال بشر في أن الهواء يمر من أحد جانبي الفم أو منهما معاً وفي قوله لثوية ولكن ليس على معني أنها من مخرج الجيم والشين بل لثوية لأن الأضراس تلتصق باللسان والأضراس تحتك باللثة وهي اللحم الذي تنبت فيه الأضراس.

وتكلم كمال بشر عن نطق الضاد القديمة فقال ((ويبدو على كل حال أن الضاد القديمة في نطقها كانت تجمع بين الظاهرتين ، ظاهرة خروج هوائها من

(1) كمال محمد بشر ، علم اللغة العام ، الأصوات ص 89 ، الطبعة السابعة ، دار المعارف 1980 .

(2) المصدر السابق ص 91 .

(3) مقال في مجلة قاريونس العلمية بعنوان [الضاد العربية بين القديم والحديث] السنة الثانية - العدد الثالث ، ص 77 .

جانبي الفم كاللام وظاهرة الاحتكاك وتطبيق هاتين الظاهرتين مضمومتين إلى نقطة النطق تحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد ، وقلما استطاع واحد مننا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدمه العرب من خواص وسمات»⁽¹⁾ وهذا تصور سليم لظاهرة نطق الضاد في مخرجها وعندما أقر بالظاهرة جاءته مسألة الصعوبة وهي قضية مقررة في الضاد الفصيحة إلا أنه بالغ فيها وتوسع إلى حد جعلها مستحيلة وهذا أمر لا أجده في نطقي لهذا الحرف وتحقيقي له عند القراءة .

ثم ذكر ما يشبه نطقها في الواقع الحالي فقال «وليس أمامنا من توضيح لنطق هذا الصوت أكثر من القول لعلها كانت تشبه ذلك الصوت الذي هو وسط بين الضاد والطاء في بعض اللهجات في البلاد العربية كالعراق والكويت أو بعبارة أدق لعل ما ينطقه هؤلاء الناس في هذه المناطق أثر من آثار الضاد القديمة»⁽²⁾ وهو تطور صوتي لها» وأقول هو خطأ في نطقها قد شخصه العلماء المتقدمون من قبل وينقل كمال بشر كلاما لمستشرق مشهور هو - يوهان فك - ويقول «يفهم منه صراحة أن الضاد في الأصل هي النظير المقخم للدال ، أي أنها حينئذ كانت تشبه ضادنا الحالية أو هي هي ، غير أن هذا الصوت في نظره - قد تغير فيما بعد في اللغة الدارجة أو المولدة بسبب اختلاط العرب بغيرهم منذ البداية ، للفتوح الإسلامية»⁽³⁾ .

وهنا نلاحظ تناقضا واضحا بين هذا المستشرق وإبراهيم أنيس وكمال بشر فهذا المستشرق يجعل الضاد دالا في الأصل وهم يجعلون الضاد دالا في التحريف هم يجعلون الدال تطورا للضاد وهو يجعل الدال أصلا للضاد !!! ولم يرض هذا المستشرق حتى يكون الضاد دالا بل قال إنها تغيرت ولم يذكر ما هو شكل التغير فقال يوهان فك «أي اكتساب اللغة المولدة بعض السمات الصوتية والصرفية

(1) كمال بشر - علم اللغة العام ، الأصوات ، ص 107

(2) للمصدر السابق والصفحة نفسها .

(3) للمصدر السابق ص 108.

والنحوية الجديدة» تغيير حرف الضاد ، وهذا الصوت الذي هو في أصله الحرف المطبق القسيم الدال خاص بالعربية بحيث يسمي العرب في أحد الأحاديث المشهورة الناطقين بالضاد»⁽¹⁾ وعلى كل حال لم نجد من المتقدمين من قال إن الضاد هي دال في أصلها أو أصبحت دالا بل هو لهجة منكورة كما نفاها المقدسي والمرعشي.

ثم يأتي كمال بشر ليضع احتمالات أمام عجز المحدثين غير القراء عن فهم مخرج الضاد فيقول : «الاحتمال الأول : أنهم (أي المتقدمين) اخطأوا في وصفهم ، ولم يوقفوا في تحديد صفاها ، الاحتمال الثاني أنهم وصفوا الضاد المولدة لا الضاد العربية الأصلية ويبدو لي حتى الآن أن الاحتمال الثاني هو الأرجح ربما لكثرة استعمال الصوت المولد وشيوعه على الألسنة عند قيام حركة التأليف اللغوي»⁽²⁾ ونحن في هذا البحث نقول لا هذا ولا ذاك.

أما الرد على الاحتمال الأول هو أننا لما جئنا نتفحص هذا الحرف لم نعتمد على ما اعتمدوا عليه من الملاحظة الدقيقة للمشافهين كما أننا اعتمدنا على تقنية ومخاير صوتية وما إلي ذلك من أمور فلما اختلفت وسيلة الملاحظة اختلف الوصف ، كما أننا وصلنا إلي ما وصلوا إليه ولم نختلف معهم في الضاد إلا في أشياء دقيقة أتت بها وسائلنا المتغيرة المتجددة المتناقضة أحيانا ، كما أننا لم نطلع على كل وصف لهم وإن كان الذي يُبَلِّغُ الضَّادَ لَنَا - فالمخطوط⁽³⁾ في هذا المجال أكثر من المطبوع ، ثم إن ما ذكروه من أمور ألاحظها شخصيا على ألسنة القراء البالغين درجة القمة في الأداء ، ثم إن الدكتور كمال بشر قد وصل إلي نطق المخرج ثم تعلق بالصعوبة التي

(1) المصدر السابق ص 108

(2) انظر على سبيل المثال : أ - رسالة تجويد القراءات لم يعلم مؤلفها، فيها رسم اللسان والمخارج مخطوط رقم 1333 بجمهورية بدار الكتب والوثائق القومية ، بالقاهرة.

ب- صورة الفم واللسان وباقي الفم من الأسنان ، مع بيان مخارج الحروف ، مخطوطة رقم 606 بجمهورية نقلت هذه المعلومات من لييب السعيد : الجمع الصوتي الأول ص 144 ، دار الكاتب للطباعة العربي للطباعة والنشر بالقاهرة 1967م.

كانت عندهم علامة بارزة من علامات الحرف فكانوا يرددون وقل من يحكمها في الناس إلا أنهم جعلوا التغلب عليه بالرياضة اللسانية والدربة ولعل هذا هو ما يسمى عند المحدثين بتكوين «الأذن المرهفة» بكثرة سماعها للصواب ودربتها عليه ، ومع كل التقصير الذي حدث في الضاد لم يجرؤ أبداً واحد منهم على القول بأن الضاد غير منطوقة أو إلى تخطئة من سبقه.

أما الرد على الاحتمال الثاني فهو أن المتقدمين فرقوا بين الضاد الضعيفة الذي أثبتنا عند نقل وصف المتقدمين أنهم وصلوا إلى أنها كل نطق غير سليم للضاد الفصيحة أو تشويه لها أو إخراجها من غير مخرجها وقد رأينا قول سيويه عنها وعن غيرها من الحروف المسترذلة المولدة (غير مستحسنة) ولا كثيرة في لغة من ترضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن الكريم ولا في الشعر⁽¹⁾ كذلك ذكرهم وتنبههم على بعض النطق المولد كما فعل ابن الجزري عندما قال «ومنهم من يخرجها لاما مفخمة وهم الزيالع ومن ضاهاهم»⁽²⁾ والزيالع قوم مولدون في أطراف الحبشة⁽³⁾ وإذا كان المتقدمون قد وصفوا المخارج والصفات بما عند المولدين فهذا يخالف دافعهم على الجمع والتأليف وهو المحافظة على كلام الله وكلام العرب بسلا كتب علماء القراءات والتجويد قد اختصت بوصف المخارج لينطق القارئ كلام ربه «بلسان عربي مبين» وعناوين كتبهم دالة على ذلك مثل كتاب الصفاقسي «تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين».

ولا بد أن نعلم أن ما رجحه هو أشد خطأً وفساداً مما لم يرجحه فليس أحد معصوماً من الخطأ - لكن أن يقول إن تلك الأمة التي حافظت ورعت واهتمت بلغة القرآن المحفوظة لغة العرب الأقحاح لم يصفوا لغتهم ولكن

(1) سيويه الكتاب 431، ج4.

(2-3) هاتم قدوري العمدة ، الدراسات الصوتية ، ص 269 نقلا عن التمهيد .

وصفوا اللغة المولدة فهذا أمر يخالف التاريخ ويجعلنا نشك في كلامنا العربي وفي جهد أولئك المخلصين ويخالف سبب التأليف الذي يعلمه الصغير والكبير يقول غانم قدوري الحمد ((وقد أثمرت تلك الجهود التي حظي بها علم التجويد في ترسيخ النطق العربي الفصيح على مدى العصور التي أعقبت نزول القرآن الكريم ، حتى عصرنا الحاضر ، ولولا ذلك الارتباط بين اللغة العربية والقرآن ، وبالتحديد بين علم التجويد والقرآن لكان حال اللغة العربية اليوم على غير ما هي عليه ، وثبات العربية الفصحى المستمر ، بخلاف كل اللغات الأخرى لم يتحقق إلا بفضل تلك العلاقة بين علم التجويد ، ممثلاً لجوهر النطق العربي الأصيل وبين نص القرآن الكريم وإن الواقع اليوم ليشهد أنه حيثما أهمل علم التجويد انتكس نطق العربية الفصحى ، ولو كان ذلك في قلب بلاد العرب ، وحيثما نال هذا العلم العناية الكافية درسا وتطبيقا صفا ذلك النطق وسما ولو كان ذلك في أطراف آسيا أو في قلب أفريقيا . إنها حقيقة كبيرة ، ومهمة في حياتنا اللغوية المعاصرة ولكننا نغفل عنها في كثير من الأحيان))⁽¹⁾ .

كما أننا لا بد أن نعلم أن كمال بشر ومن قبله هم الذين وصفوا المولد واللهجات وأنكروا الضاد والله در من قال ((رمتني بدائها وانسلت)).

بعد هذه الاحتمالات التي رددنا عليها حدد كمال بشر صفات الضاد فقال (هي النظير المجهور للطاء ، فلا فرق بينهما إلا أن الطاء صوت مهموس والضاد صوت مجهور كما أنه لا فرق بين الدال والضاد إلا أن الضاد مطبق مفخم والدال لا إطباق فيه . فالضاد إذن صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مفخم (مطبق)⁽²⁾ علق على هذا الوصف وقال هو بحسب نطق المتخصصين وقرء القرآن من أبناء مصر ثم ذكر ملاحظة تحت جدول عقده للصفات فقال فيه

(1) غانم قدوري الحمد - للدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 87.

(2) كمال بشر - علم اللغة العام " الأصوات " ص 104.

«هذا الترتيب متأثر بنطقي الشخصي»⁽¹⁾ وهنا نجد فرقا بينه وبين أحد قراء مصر المشهورين المعروفين وهو الحصري والفرق بينهما واضح فكيف ينقل كمال بشر عن القراء وهو يخالفهم في وصفهم ونطقهم ولكني أقول ربما لم يسمع هذا القارئ الذي دون في كتاب له أن صفة الضاد هي الرخاوة والجهر وقال بالمخرج الذي نقله المتقدمون وكان امتدادا للمرعشي كما سيأتي فالواضح أنه اعتمد نطقه الشخصي.

ثالثا : عند محمود خليل الحصري

يقول في مخرج الضاد «فهي تخرج من أول حافتي اللسان أي جانبيه ، بعد مخرج الياء وقبل مخرج اللام مستطيلة إلى أول مخرج اللام ، مع ما يلي الضاد من الأضراس العليا ، وأول الحافة مما يلي الحلق ما يحاذي وسط اللسان بعد مخرج الياء ، وآخرها ما يحاذي آخر الطواحن من جهة خارج الفم وخروج الضاد من الجهة اليسرى أسهل ، وأكثر استعمالا ، ومن اليمين أصعب وأقل استعمال ، ومن الجانبين معا أعز وأعسر وعلى الجملة فهي أصعب الحروف خروجا وأشدّها على اللسان»⁽²⁾.

وواضح الاعتماد على تعريف الخليل وسيبويه ومن بعدهما مع شئ من الشرح والبيان فهي تخرج من أحد جانبي اللسان أي احتكاكية تحتك مع الأضراس وهي حنكية وجزء الحنك الذي يقابل وسط اللسان هو الذي يختص بها وهي أسنانية من حيث إن الأضراس تحاذي حافة اللسان فتحتك بها ويحدد الحصري ما يحتك به اللسان من الأسنان فيقول «غير أن الضاد من الناجذ إلى الضاحك واللام منه إلى الثنية»⁽³⁾ فالأسنان التي تأخذها الضاد عشرين

(1) علم اللغة العام * الأصوات * ص 136.

(2) الحصري - أحكام قراءة القرآن دراسات في الإسلام - يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية العدد 114-1970م الكتاب مؤلف 1966م.

(3) الشيخ الحصري أحكام قراءة القرآن - ص 43.

سنا وهي الأضراس برمتها ويجعل الحصري الضاد لثوية فيقول ((فكل منهما (الضاد واللام) يخرج من إحدى حافته مع ما يليها من لحم الأسنان العليا))⁽¹⁾ وبديهي أن لحم الأسنان العليا هو اللثة فالضاد عند الحصري جانبيه احتكاكية أسنانية لثوية حنكية باعتبارات مر ذكرها ، فليس معنى لثوية أسنانية تخرج من مخرج الدال والطاء والتاء بل أسنانية لأن الأسنان ركن من أركان مخرجها وهي الأضراس ولثوية أى تحتك باللحم الذي مركبة فيه الأضراس . ومعنى كونها حنكية أى أنها قريبة من وسط الحنك وهو ما يقابل وسط اللسان بعد الجسيم والشين والياء أى شجرية ، ومعنى جانبية أنها مع مخرج اللام وأن الهواء عندما تنطق بمخرج من أحد جانبي الفم وأما كونها احتكاكية فهي تحتك بالأضراس وتلاصقها بدون حبس وحصر كامل للهواء .

ولعل ما أعان الحصري على تصور سليم أو قبول كامل لآراء المتقدمين هو امتلاكه لنطق أخذه مشافهة هذه المشافهة التي قد يظن أنها غير مهمة ولكن انظر ما قاله لبيب السعيد في مكانتها ((وقد وضعت كتب غير قليلة لتيسير تعليم التجويد ، ولكنها لم تغن أبدا عن التعليم الشفهي الذي يذلل صعوبها ويوضح غموضها - ومن أمثلة ما ورد في هذه الكتب من التعريف بمخارج الحروف السبعة عشر - وهي أمثلة يدل القليل منها على الكثير - قولهم عن مخرج الضاد: إنه جزء من حافة اللسان بعيد الوسط وقيل مخرج اللام مع ما يليه من الأضراس العليا اليسرى على كثرة أو اليمنى على قلة ، أو منها على عزة ((فهذا التعريف - فيما هو ظاهر - ليس سهل الفهم على كل أحد))⁽²⁾ ويؤكد الفكرة بمزيد من الوضوح ((وقد وجد من المؤلفين في قواعد التجويد من يعلمه بالرسم

(1) الشيخ الحصري أحكام القرآن - ص 43.

(2) لبيب السعيد الجمع الصوتي الأول ص 143.

كوسيلة إيضاح ولكن جهدهم - على ما في بعضه من تقدمية علمية مبكسرة
لم يمنع الحاجة إلى التلقين الشفهي المتكرر»⁽¹⁾.

نعود إلى الحصري الذي لم يحد حذو المحدثين الآخرين الذين لم يناقشوا بقية
الصفات من غير الجهر والرخاوة والشدة والهمس بل ذكر الحصري صفات الضاد
الأخرى ونقل عن المرعشي في مواضع عديدة قال الحصري «الضاد لها ست صفات
الجهر ، الرخاوة ، الاستعلاء ، الإطباق ، الإصمات الاستطالة»⁽²⁾ ونقل توضيحا
عن المرعشي للاستعلاء فقال «قال العلامة المرعشي : إن المعتبر في الاستعلاء إنما هو
استعلاء أقصى اللسان سواء استعلي معه بقية اللسان أم لا»⁽³⁾

وقد فصل الحصري في الاستطالة فقال «ووصفت بالاستطالة لامتدادها في
مخرجها حتى تتصل بمخرج اللام والفرق بين الاستطالة والمد - مع أن كلا منهما
امتداد - أن الاستطالة امتداد الحرف في مخرجه المحقق مع انحصاره فيه ، وأما المد فهو
امتداد الصوت عند النطق بحروفه دون انحصار في المخرج إذ ليس له مخرج محقق حتى
ينحصر فيه»⁽⁴⁾ وأثبت للضاد التفخيم والتفشي غير المجمع عليه بل قال هو انتشار
الريح على قلة بالقياس إلى الشين كما مر ذلك عند المرعشي⁽⁵⁾ ، وكذلك الإطباق
فقد أثبتته⁽⁶⁾.

وقد قسم الحصري الحروف إلى خمسة أقسام من حيث القوة والضعف
وجعل الضاد في القسم الثاني فقال القسم الثاني : الحروف التي معظم صفاها
قوي فتوصف بالقوة .. الضاد والظاء ...»⁽⁷⁾ وقد اجتمعت في الضاد صفات

(1) المصدر السابق.

(2) الحصري أحكام قراءة القرآن الكريم ، ص 86 ،

(3) المصدر السابق ص 64.

(4) المصدر السابق ص 76.

(5) المصدر السابق ص 76.

(6) المصدر السابق ص 76.

(7) الحصري أحكام قراءة القرآن الكريم ص 82.

عديدة من القوة وهي الجهر ، الاستعلاء ، والإطباق ، والتفشي ، الاستطالة ، ومن الضعيفة الرخاوة فحسب ، أما الاصمات الذي ذكر فلا دخل له في الضعف ولا في القوة (1)

وعلى أية حال إن أهم ما في كلام الحصري أنه اعتمد على المرعشي في مخرج الضاد وصفتها أي أنه أخذ الأمر من ثقة وممن شهد له المحدثون (2) بالدقة والحصافة كما أنني لا أتصور أن الحصري سيقراً كلام الله بغيرها نقل له الثقات والأفذاذ وينطق كلام ربه بالضاد المولدة أو أن يجعلها دالا أو ظاء أو لاما مفتحة فهذا مستبعد كما يظهر ذلك في قراءته عندما نصت إليه بأذن مرهفة.

رابعا : عند لبيب السعيد :-

أدرك خطورة دخول اللحن على القرآن الكريم وهذا اللحن سيؤدي إلي فساد العربية فنادي بأعلى صوته بالجمع الصوتي للقرآن الكريم إلا أنه لم يتمكن إلا من تسجيل مصحف واحد لرواية حفص عن عاصم بصوت الشيخ الحصري ثم توقف الأمر لنقص الإمكانيات المادية كما يقول (4).

فقد توفر له سنة 1964م ما يسهل هذه الفكرة من نواح عملية من - تواتر ومشافهة - ووصف علمي وفهم سليم وفي ثنايا تلك الفكرة أنكر لبيب السعيد مسألة ردها المحدثون كثيرا وهو التطور وتغير الحرف العربي كما قال كمال محمد بشر مثلاً (على أنه من الواجب أن ندرك أنه من المحتمل أن يكون قد حدث تطور من نوع ما للأصوات العربية من حيث مواضع نطقها منذ زمن ابن جني إلي وقتنا الحاضر ، فقد يفسر الخلاف بيننا وبينه أحيانا على أنه راجع إلي هذا السبب وهنا احتمال على كل حال فليست لدينا أدلة يقينية تثبت أو تنفي هذا التطور ، إن التطور في الأصوات بالذات لا يتأكد إلا بالاستماع الفعلي للأصوات وأنني لنا ذلك وليست لدينا

(1) المصدر السابق

(2) انظر غانم قدوري الحمد في أكثر من موضع في للدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 144.

(3) لبيب السعيد / الجمع الصوتي الأول ص 133 .

تسجيلات - أو حتى وصف علمي دقيق - لهذه الأصوات ولكننا لا نهمّل فكرة التطور هذه بحال من الأحوال اعتماداً على ما نعرفه من طبيعة الكلام الإنساني وقابليته للتطور والتغير من عصر إلى عصر واعتماداً على الشاهد الملموس الآن في اللهجات العامية ...»⁽¹⁾ وقياسه العامية بالفصحى قياس مع الفارق .

وفي النص السابق بيان لأهمية التسجيل الصوتي الذي نادى به لبيب السعيد ونشعر بالحاجة الملحة إليه ، ويرد لبيب على هذا الاحتمال وهو تطور النص أو المخرج فيقول «فإنه لا حرج إذن - في ظل هذا المذهب الظاهر الفسّاد - من أن تمضي قراءات القرآن في الكثرة ، ولهجاته في التعدد ، فمثلاً ، لا حرج - في ظل هذا المذهب - وقد تحولت الناء إلى تاء ، وأحياناً إلى سين في بعض المناطق العربية وتحولت القاف إلى جيم غير معطشة في بعض هذه المناطق ، وإلى همزة في مناطق أخرى وتحولت الذال إلى زاي ، وتضاءلت أصوات اللين الطويلة حتى كادت [كذا في الأصل] أن تنقرض «وفي ظل الضاد دالاً أو طاء» لا حرج من أن يقرأ القارئ : أن الله لا يظلم «متال» أو «مسال» أو مسجال زرة بدلاً من قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»⁽²⁾ ويقرأ «فان لم يكن لو ولد وورسه ابويه فلامه التلت» ويقرأ «فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في التلت» بدلاً من قوله تعالى «فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث» وقوله «فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث»⁽³⁾ ويقرأ «فان (أعرد)» «فجل» أو «فأول» أنزرتكم «صعأة» أو «صعجة» مسل «صعأة» أو «صعجة» عاد وسمود ، بدلاً من قوله تعالى:

(1) كمال بشر علم اللغة العام الأصوات ص 94

(2) من سورة النساء

(3) من سورة النساء

«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»⁽¹⁾ ومن أسهل السهل أن
تورد من هذا القبيل مئات الأمثلة أو ألوفها ، ولكننا نجتري بما ذكرنا لكفايته في
إثبات أن ترك القرآن للناس يقرأونه بما يشتهون من قراءات وما يؤثرون من
لهجات- كما ظن طه حسين- هو في كلمة موجزة إلغاء للقرآن»⁽²⁾ وواضح
إنكار لبيب السعيد لاحتمال التطور الذي قال أصحابه ليست لنا أدلة تنفيه أو تثبته
ولكن السعيد يذكر مفسده التي تجعله أمرا غير معقول في الفصحى لغة القرآن
الكريم.

ويضيف السعيد في نفي التطور في مخارج الحروف وصفاتها فيقول إنه ما دام
أمر القراءات - بحسب قول طه حسين- أمرا تجوز فيه المجادلة والإنكار والقبول
والرفض فإن من المنطق أن تجوز فيه الإضافة والاستحداث ولماذا لا يقرأ كل مسلم
القرآن بلهجته الخاصة على النمط الذي أشرنا إليه في فقرات سابقة ؟ ولماذا لا يقرأ
أبناء البلاد الآسيوية والإفريقية القرآن بلهجتهم ؟ ولماذا لا يقرأ المسلمون الأمريكي
والأوروبي والأسترالي كل منهم بلهجته ؟ هذه نتيجة خاطئة لمقدمة خاطئة ، وقد سقنا
الشواهد آنفا على أن البشر إذ يدخلون اللهجات من عندهم في القرآن يلغونها
إلغاء ، فضلا عن أن يبدلوه تبديلا»⁽³⁾.

ولعلنا في ختام الحديث عن طائفة المحدثين نذكر أن منهم من توقف في أمر
الضاد مثل حسن ظاظا من المتوقفين في أمر الضاد عندما يقول «وبعد فما تزال في
الضاد من حيث علم الأصوات وعلم الدلالة الصوتية متاهات لم يقل العلم فيها كلمته
الأحيرة»⁽⁴⁾.

(1) سورة فصلت.

(2) لبيب السعيد الجمع الصوتي ، ص 95.

(3) لبيب السعيد ص 216 - 217 .

(4) حسن ظاظا : كلام العرب من قضايا اللغة العربية - دار المعارف 1976-ص29.

كما أننا رأينا بعض الآلات التي اعتمدها المحدثون وكانت سببا في اختلافهم مع المتقدمين وتغيرت نتائجها منها أى هذه النتائج هو تغير رأى⁽¹⁾ شاده المستشرق الألماني بعد عشرين سنة في موضوع الجهر والهمس عندما فسر كلام سيويه .
وهذه الآلات هي في تحسين وتطوير يقول محمود السعران «ولا يزال علماء الأصوات ، عاكفين على التحسين من وسائلهم ، وعلى الإضافة إليها»⁽²⁾ وما أدرانا أن هذا التحسين قد يثبت رخاوة الضاد ولا يفجرها .
ومن هذه الأجهزة ما يعوق النطق السليم⁽³⁾ كمجهر الحنجرة ، ومن هذه الوسائل ما تغيرت نتائجه فأول صورة لجهاز « الكيموجراف »⁽⁴⁾ تختلف عن آخر صورة له ولا يزال العلماء يدخلون عليه تحسينات وتبسيطات .
وفي ظل هذه الأجهزة المتبدلة النتائج كيف نهدم إجماع المتقدمين على صفة الضاد ومخرجها ولا بد أن هذه الآراء التي أنكرت الضاد التي على ألسنة القراء افتقدت الأذن المرهفة⁽⁵⁾ التي نص عليها أكثر من واحد وقد اهتم بها الغربيون وأهملها العرب .
ولكنني في نهاية هذه السطور أقول إن من أراد الأذن المرهفة فليدمن على الاستماع والإنصات لكتاب الله من أفواه الحذاق الماهرين من قراء الأمة .

(1) انظر الأصوات اللغوية ص 113

(2) السعران : علم اللغة العام - مقدمة للقارئ العربي ص 103 - دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت .

(3) المصدر السابق ص 105

(4) المصدر السابق ص 108

(5) المصدر السابق ص 108

الخلاصة

إن زبدة النقاش وثمره البحث هي أن الضاد :-

1. حرف من كلام الله الذي تكفل الله بحفظه وتيسيره وهو باقٍ إلى أن يسرث الله الأرض ومن عليها .
2. اتفق المتقدمون على وصف مخرجها وكمّل بعضهم لبعض صفتها .
3. لا تظهر وتتضح إلا بالناحية النظرية والعملية ، وهي المشافهة عند المتقدمين .
4. أنكر المتقدمون كون الضاد طاءً أو دالاً أو ظاءً كما هو في لهجات العامة .
5. لها مخرج مستقل لا يشاركها فيه غيرها وصفتها الميزة لها الاستطالة وصعوبتها على اللسان .
6. تحتاج إلى دُرِّيَّةٍ ورياضة وتكوين الأذن المرهفة .
7. نفي التطور عن الضاد لأنه يُعَدُّ إلغاءً لها .
8. كلما ظهر لحن في نطقها حدّده العلماء وحذّروا منه .
9. فصاحة الضاد على ألسنة القراء في كل العصور وسلامتها مرتبطة بهم .
10. لها ثلاث عشرة صفة وهي كونهما شجرية مجهورة رخوة مستعلية مطبقة مشربة مصممة مفحمة قوية مفردة مستطيلة متفشية زمانية شبيهة بالظاء .
11. اختلف المحدثون في الضاد بين متوقف في أمرها وبين منكر وجودها وبين مثبت لها على ألسنة القراء .
12. يؤكد البحث إثباتها على ألسنة الحُذّاق من القراء الماهرين .
13. أثبتت دراسات المنهج المقارن في اللغات السامية واللغة العربية أن الضاد من خصائص العربيّة الفصحى ، ولذا شاعت تسمية العربية بلغة الضاد .

14. اختلاف وسيلة البحث يؤدي إلى اختلاف النتيجة وهذا ما حصل في أمر الضاد بين المتقدمين والمحدثين.
15. لم يثبت المحدثون لحناً جديداً لم يناقشه المتقدمون فقد وجد أنها نطقت في عهدهم دالاً وطاءً ولكن هذا اللحن لم يؤثر على ضادهم كما هو الشأن في عهدنا.
- 16- الاستشراق يلعب دوراً كبيراً في نفي الضاد وفي تأثيره على آراء المحدثين .
17. العلاقة كبيرة وثابتة بين مخارج العربية وصفاتها وعلم التحويد وإذا فُقدت هذه العلاقة فقدت مخارج العربية وصفاتها قوتها ووضوحها .
18. المفاصد عظيمة ومُرَوِّعة عند القول بإنكار نطق حرف الضاد .
19. ما سماه الأوائل لحناً وخطأً في كتاب الله يسميه المحدثون تطوراً ومهما يكن من أمر اللحن أو التطور فهو لم ولن يستطيع أن يُلغى الضاد وأخواتها من حروف اللغة العربية المحفوظة بحفظ الله لكتابه العزيز الحميد .

خاتمة

ما دعا به الإمام أبو حامد الغزالي

اللهم إني أسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، و من العيش أرغدة ، ومن العمر أسعده ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الإنعام أعمه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أقربه .

اللهم كن لنا ، ولا تكن علينا ، اللهم احتم بالسعادة آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، وأقرن بالعافية غدونا ، وأصلنا ، واجعل إلى رحمتك مصرينا ومآلنا ، واصيب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومن علينا بإصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفي دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا .

اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة ، وأعدنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفف عنا ثقل الأوزار ، وارزقنا عيشة الأبرار ، واكفنا شر الأشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وأخواتنا وإخواننا من النار ، برحمتك ، يا عزيز ، يا غفار ، يا كريم ، يا ستار ، يا علیم ، يا جبار ، يا الله ، يا الله ، يا الله ، برحمتك ، يا أرحم الراحمين ، ويا أول الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا ذا القوة المتين ، ويا أرحم المساكين ، ويا أرحم الراحمين ، (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .
وصلی الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس الآيات

- 1- (فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثَّلَاثُ) سورة النساء آية "11"
- 2- (فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ) سورة النساء / آية "12".
- 3- (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) سورة النساء ، آية "40".
- 4- (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) سورة هود ، آية "88".
- 5- (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر ، آية "9".
- 6- (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) الشعراء ، آية "195".
- 7- (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) سورة الدخان ، آية "55":
- 8- (فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ) سورة فصلت ،
- 9- (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ) "سورة القمر ، آية "17".
- 10- (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن ، " 2،1". آية "12".
- 11- (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) سورة الرحمن ، آية "59".

ثبت تفصيلي عن أهم المصادر والمراجع

أولاً : القُدَامِي

- 1- الفراهيدي : - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت 175 هـ)
- كتاب العين الجزء الأول بتحقيق د-مهدي مخزومي و د- إبراهيم السامرائي منشورات دار ومكتبة الهلال.
- 2- سيويه :- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180 هـ).
- الكتاب الجزء الرابع تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مطبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة 1975م
- 3- ابن جني - أبو الفتح عثمان (ت 392 هـ)
- كتاب سر صناعة الإعراب بتحقيق لجنة من الأساتذة مصطفى السقا - إبراهيم مصطفى
محمد الزفزاف- عبد الله أمين
مطبعة مصطفى الباوي الحلبي وأولاده.مصر ، الطبعة الأولى 1954م.
- 4- ابن سينا : - أبو علي الحسين بن عبد الله عاش (370-428هـ)
- رسالة أسباب حدوث الحروف بتحقيق محمد حسان الطيبان
ويحيى مير علم مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى 1983م.
- 5- مكّي أبو محمد مكّي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ)
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التي تلزمها .
تحقيق د- أحمد حسن فرحات مكتبة مكّي بن أبي طالب القيسي توزيع دار الكتب العربية .

6- الشاطي : - القاسم بن فيرة (ت 590هـ)

- قصيدة حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع
تصحيح ومراجعة متولي عبد الله الفقاعي مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح
وأولاده .

7- ابن يعيش :موفق الدين بن علي (ت 643 هـ)

- شرح المفصل المجلد الثاني الجزء العاشر الطباعة علم الكتب بيروت مكتبة المتين
القاهرة .

8- ابن الجزرى :- أبو الخير محمد بن محمد المدشقي (ت 833 هـ)

- النشر في القراءات الجزء الأول دار الكتب العلمية بيروت أشرف علي
تصحيحه ومراجعته للمرة الأخيرة علي محمد الضباع شيخ عموم المقارئ المصرية .

9- المقدسي :- ابن غانم علي بن محمد بن خليل (ت 1004 هـ)

- بغية المرتاد في تصحيح الضاد مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد
الرقم (7/11068) ، والأوراق 10/1 نقلا عن كتاب الدراسات الصوتية عند علماء
التجويد د غانم قدوري الحمد .

10- الصفاقسي :- أبو الحسن علي بن محمد النوري (ت 1053 هـ)

- تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم
لكتاب الله المبين تقديم وتصحيح محمد الشاذلي النيفر المكتبة القرآنية
- نشر وتوزيع عبد الكريم بن عبد الله.

11- المرعشي :- محمد بن أبي بكر المعروف بساجقلى زاده (ت 1150 هـ)

- جهد المقل مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد (الرقم 4/11068) نقلا عن
كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد د - غانم قدوري الحمد.

12- المرعشي السابق :-

بيان جهد المقل وهو مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد (الرقم 4/11068) نقلا عن كتاب لدراسات الصوتية عند علماء التجويد -د-غانم قدوري الحمد .
13-المرعشي السابق :-

- كيفية أداء الضاد وهو مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد (الرقم 6/11068)
نقلا عن أحكام قراءة القرآن الكريم للشيخ الحصري وكذلك كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد -د- غانم قدوري الحمد.
ثانياً : المحدثين :

- 1- أنيس : - د أبراهيم
- الأصوات اللغوية الطبعة الرابعة 1987م ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية
- 2- بشر :- د - كمال محمد
- علم اللغة (الأصوات) ، الطبعة السادسة دار المعارف 1980م.
- 3- الحصري : محمود خليل
- أحكام قراءة القرآن الكريم دراسات في الإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة العدد 114 السنة العاشرة 15/ رمضان /1390 هـ - 1970م الكتاب مؤلف سنة 1966 م.
- 4-الحمد :- د- غانم قدوري
- كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، مطبعة الخلود بغداد 1406 هـ - 1986م ، الطبعة الأولى ، إشراف لجمهورية العراقية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وإحياء التراث الإسلامي " سلسلة الكتب الحديثة " وهو رسالة دكتوراة .
- 5- السعران :- محمود
- علم اللغة مقدمة للقارئ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت .
- 6- السعيد :- لبيب.
- الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل بواعثه ومخططاته دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة 1967م.
- 7- ظاظا :- د- حسن

- كلام العرب من قضايا اللغة العربية دار المعارف 1976م.

8- القاضي :- عبد الفتاح

- الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع الناشر مكتبة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم الكتب الإسلامية .

9- القماطي :- د- ونيس

- مجلة قاريونس العلمية مقال بعنوان (الضاد العربية بين القديم والحديث) السنة الثانية العدد الثالث .

10- هلال :- د . عبد الغفار حامد هلال .

مقال بعنوان (المنهج المقارن في اللغات السامية واللغة العربية) منشور ضمن دراسات إسلامية وعربية مهداة إلى العلامة الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس بمناسبة بلوغه السبعين أشرف على إعداد هاد . جمال محمود أحمد أبو حسان ، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - الأردن - ط 1 - 2003 م .